الباب السادس

آفاق جديدة يستمدها الباراسيكولوجى من « رؤى المحتضرين »

تمهيد وتبويب

أخذت ظواهر « رؤى المحتضرين » تجتذب انتباه صفوة الباحثين العلميين فى الباراسيكولوجى — منذ مطلع هذا القرن ، وذلك لعدة أسباب : —

— أولها : تزايد الاهتمام بدراسة جميع الظواهر غير المألوفة ، التى هى موضوع الباراسيكولوجى بوجه عام . وظواهر رؤى المحتضرين سرعان ما اندرجت بسهولة فى هذا الوصف .

— وثانيها : سرعان ما تبين أن لهذه الظواهر صلة وثيقة بكل الأبحاث التى تدور حول محاولة إلقاء بعض الأضواء على جانب هام من مشكلات الموت والحياة ، التى هى موضوع « علم الروح الحديث » . والباراسيكولوجى الآن هو بمثابة المنهج العلمى له ، أو هو بمثابة مدخله العلمى ، كما أن البيولوجيا هى المدخل إلى الطب وإلى الفسيولوجيا .

— وثالثها : تقدم سبل « طب الإنعاش » لمن قد تحدث لهم غيبوبة احتضار تامة قد تتوقف فيها كل الأعراض الحيوية ومنها النبض ، والتنفس ، والحركة ، والوعى . . فقد كشف هذا التقدم الباهر عن طريق عمليات تدليك القلب والتنفس الصناعى ونقل الدم ، وبعض عقاقير الإنعاش ، وما إلى ذلك عن سبل أدت إلى إمكان إعادة النبض والتنفس لأعداد لا يستهان بها من الأشخاص الذين كان يجزم الطب التقليدى بموتهم خطأ . أى كان يتسرع فى تشخيص الموت وفى التصريح بالدفن على غير أساس من الواقع .

— ورابعها : تقدم المنهج الرياضى — الفيزيائى خصوصاً فى تطبيق معادلات الاحتمال Calculation of propabilitie$_s$. فإن هذا التطبيق على « رؤى المحتضرين » قد كشف عن وجود عدة عناصر مستقرة فى هذه الظواهر ، خصوصاً بعد توسيع رقعة البحث إلى أبعد مدى ، وبعد استبعاد ما قد يمت منها إلى احتمالات الصدفة .

وهو أسلوب شاق درج عليه العلم المعاصر وقد أظهر هذا الأسلوب أن ثمة عناصر من بعض الرؤى لها أصول مستقرة حتى لو كانت متراوحة ، ويمكن أن تخضع بالتالى للمنهج الرياضى ، وأن هذه الأصول وثيقة الصلة بدراسات الموت والحياة .

وساعد على التوسع فى استخدام هذا الأسلوب التقدم الذى أحرزته العقول الألكترونية فى مساعدة الباحثين فى استخلاص النتائج من المقدمات استخلاصاً سريعاً وصحيحاً . وأخطر هذه النتائج هنا أن هذه الرؤى ليست محض أوهام أو أضغاث أحلام . بل هى تشير — فى مجموعها — إلى صحة مبدأ خلود النفس الإنسانية ، وتطابقه مع معطيات العلوم الطبيعية .

وهكذا ابتدأت دعوى خلود النفس تجد لها أسانيد رياضية حديثة مترابطة فى جوانب عديدة منها مع دراسات سائر الظواهر الوساطية الأخرى .

وبعد بدأ الاهتمام الجاد ببحث هذه الظواهر فى أمريكا سرعان ما انتقلت عدوى الاهتمام بها إلى أوربا ، فأخذ العلماء من جانبى المحيط يتبادلون المعلومات والتقارير الفورية مستخدمين كل السبل العصرية المتاحة ، بما فى ذلك استخدام الأقمار الصناعية على نطاق واسع .

* * *

وهذه الظاهرة يعبَّر عنها باختبارات « الاقتراب من الموت » Near Death Experiences (رمزها العلمى N. D. E.) ، وهى مرتبطة بظاهرة « الخروج من الجسد » Out of Body Experiences (رمزها العلمى O.O. B. E.) . وهذه الظاهرة الثانية تقليدية فى أبحاث التنويم المغناطيسى ثم فى أبحاث البارا سيكولوجى ، أما الظاهرة الأولى فهى أحدثها كلها فى مجالات التحقيق العلمى .

والترابط يجيء من ناحية أنه فى رؤى المحتضرين كثيراً ما يقرر المحتضر أنه كان يقف خارجاً عن جسده العضوى ، وكان ينظر إليه كما لو كان شخصاً لا يمت إليه ، بكل ما يسببه هذا الموقف الشاذ من حيرة وضيق عند صاحبه .

ولذا فإن هذه الظاهرة — وهى رؤى المحتضرين — مرتبطة أيضاً بالاعتقاد السائد عند علماء الفيزياء والروح والنفس المعاصرين من ناحية اقتناعهم بوجود جسد أثيرى أو روحى للإنسان مستقل عن جسده العضوى ، وغير قابل للفناء حتى عند موت الجسد العضوى [1] .

وهى مرتبطة بنفس المقدار بكل ظواهر الإدراك عن غير طريق الحواس Extra Sensory Perception (رمزها العلمى E. S. P) . وقد تبين أن للمحتضر خصوصاً بعد خروجه من جسده العضوى — قدرة على النظر عن غير طريق العين ، والسمع عن غير طريق الأذن ، والحديث عن غير طريق الفم ...

وقد كشفت ظواهر رؤى المحتضرين عن بيانات أخرى عديدة كان يتوق العلم إلى كشف بعض أسرارها بشأن مشاعر المحتضر ، وبما قد يمر به من اختبارات غير مادية عندما يكون على عتبة تحوله من الحياة العضوية إلى مرحلة أخرى لاحقة بها يطلقون عليها الآن وصف مرحلة « ما بعد الحياة » ، وهى مرحلة لا تنتمى بطبيعة الحال إلى الحياة العضوية كما يعرفها الإنسان ويألفها .

لهذه الاعتبارات مجتمعة أخذ العلم المتطور يعنى عناية متزايدة بدراسة هذه الظواهر على أصول ثابتة من علوم النفس ، والروح ، والفيزياء ، والبيولوجيا ، والفسيولوجيا ، والرياضيات .

ونتيجة لذلك كان من الطبيعى أن تعنى معاهد الطب ، والعلوم ، والفلسفة ، بنتائج الدراسات الميدانية فى هذا المجال . وذلك إلى الحد الذى رفع رقم المحاضرات والدروس التى ألقيت بشأن ظواهر رؤى المحتضرين وحدها فى الولايات المتحدة فى

---

(١) راجع ما سبق فى ص ١٤٥ — ١٨٤ .

عام واحد — وهو عام ١٩٨١ — إلى حوالى ١٢٥,٠٠٠ درس ومحاضرة بحسب الإحصاء الذى أجراه أحد المعاهد ! ! . . .

وهذا اعتبار واحد من بين اعتبارات أخرى كثيرة دفعتنى إلى العناية بهذا الموضوع وإلى متابعة ما يجرى بشأنه الآن فى الخارج ، ولكن سوف يكون تعرضى له فى الحدود الضيقة التى قد تسمح بها صفحات هذا الكتاب بموضوعاته المتنوعة .

* * *

هذا وقد رأيت أن أوزع عناصر هذا الباب على فصلين ، وذلك على النحو الآتى : —

الفصل الأول :

طائفة من الباحثين فى هذه الظواهر مع نتائج أبحاثهم .

الفصل الثانى :

الخطأ فى تشخيص الموت ، وذلك بعد أن ألقت تحقيقات رؤى المحتضرين أضواء جديدة مكثفة على احتمال حدوث هذا الخطأ بمعدلات أكثر بكثير من تلك المعدلات التى وصل إليها بعض الباحثين فيما مضى عن طريق سبل البحث والإحصاء التقليدية .

وبعد الفراغ من الاطلاع على هذه الموضوعات البالغة الأهمية سيدرك القارىء بنفسه مدى خطورة الدور الذى تقوم به أبحاث البارا سيكولوجى بوجه عام ، وأبحاث رؤى المحتضرين بوجه خاص ، فى فتح آفاق جديدة للعلم وللعرفان . وهى آفاق كفيلة بإزاحة العديد من مصادر سوء الفهم ، ناهيك بالآلام والأهوال التى كانت تعانى منها الإنسانية جمعاء ، وما تزال تعانى فى العديد من الأرجاء .

وذلك خصوصاً فى دول العالم الثالث حيث قد يجرى تسرع خاطىء فى دفن الموتى ، مع احتمال الخطأ فى تشخيص الموت ، بسبب الاكتفاء بالكشف الظاهرى وربما بدون إجراء أى كشف إطلاقاً بمعرفة طبيب مختص ، حتى ولو كان الكشف ظاهرياً ! !

الفصل الأول

طائفة من الباحثين فى ظواهر « رؤى المحتضرين »

مع نتائج أبحاثهم

تمهيد وتبويب

الباحثون البارزون فى هذه الظاهرة الآن عديدون ، ومن روادهم الدكاترة إليزابث كوبلرروس Elizabeth Kubler — Ross ، وريموندمودى Raymond Moody ، وكارليس أوزيس Karlis Osis ، وإرلندور هارالدسون Erlendur Haraldsson ، وستانيسلاف جروف Stanislav Grof ، وجون هاليفاكس Joan Halifax وغيرهم . . .

وسنتناول أدوار هؤلاء الباحثين فى خمسة مباحث متتابعة على النحو الآتى : —

المبحث الأول :

دور إليزابث كوبلر روس .

المبحث الثانى

دور ريموند مودى .

المبحث الثالث :

دور أوزيس وهارالدسون .

المبحث الرابع :

دور جروف وهاليفاكس .

المبحث الخامس :

دور أسماء أخرى عنيت بظواهر رؤى المحتضرين .

المبحث الأول

دور إليزابث كوبلر روس

هذه الباحثة الأمريكية معتبرة الآن رائدة هذا النوع الجديد من البحث ، وكانت أخصائية علم نفس وتحليل نفسى بمستشفى جامعى بمدينة دينفر Denver واشترك معها فى بعض أبحاثها وسيط مشهور للطرح الروحى يدعى روبرت مونرو Robert Monroe ٥

ومما سجلته إليزابث روس من نتائج أبحاثها أن الإنسان المحتضر — بصفة عامة — يمر بخمس مراحل متتابعة وهى : —

أولا : الرفض (أى رفض الرحيل) .

ثانياً : الغضب .

ثالثاً : المساومة .

رابعاً : التدهور أو الاكتئاب .

خامساً : القبول (أى الإذعان للرحيل)[1] .

وبحسب هذه الباحثة فإن حالة الاحتضار تبدأ وكأن لسان حال المحتضر يقول « لا لست أنا المقصود » . وعندئذ يحاول أن يستجمع كل قوته للدفاع عن نفسه ولرفض الموت ، ويؤدى هذا الشعور بالرفض إلى الغضب ومحاولة المقاومة .

ثم يتحول شعور المحتضر إلى المساومة ، محاولا — إذا كان عنيداً — أن يتودد وأن يحسن سلوكه لعل ذلك يؤدى إلى إمهاله ، ومنحه فسحة من الوقت ومزيداً من العمر ! ولما يبين له ألا مفر من الموت يدخل فى مرحلة من التدهور أو الاكتئاب ، لشعوره بأن عليه أن يدفع الثمن الفادح ، وهو الحرمان من كل شىء ، مع فراق أحبابه وذويه .

---

(١) وذلك فى مؤلف لها عنوانه « فى الموت والاحتضار » On Death & Dying . وله طبعة حديثة فى سنة ١٩٧٦ .

وبعدئذ يبدأ شعوره فى الاستسلام عندما يأخذ فى الحديث عن الأصوات التى يسمعها ، والمناظر ، أو الأرواح ، والأضواء ، التى قد يشاهدها ، وكل ما يمكن أن يدخل تحت وصف « الرؤية » Vision .

وقد أدى تحليل هذه الدراسات الجديدة على العلم إلى اقتناع إليزابث روس بأن الاحتضار هو مجرد تحول من حالة إلى حالة أخرى لاحقة . لذا صرحت قائلة « بأننى أصبحت أعلم بدون أى ظل للشك أنه توجد حياة أخرى بعد الموت » .

* * *

وهذه الرائدة الشهيرة من أصل سويسرى وقد حازت فى الدوائر المطلعة سمعة عالمية الآن . وكان لأبحاثها فضل إجراء عدة تعديلات هامة فى المستشفيات الأمريكية لصالح معاملة المحتضرين ، وتخفيف آلامهم التى تسبق الاحتضار ، ومخاوفهم التى قد تصاحب هذا الاحتضار .

وقد مهدت بأبحاثها الطريق أمام لفيف من الباحثين اللاحقين لمتابعة القيام بتحقيقات كثيرة فى هذه الظواهر الفريدة التى كانت لا تثير أى انتباه فيما مضى . وكان لا يتصور أى إنسان أنها جديرة بالدراسة ، أو حتى أنه من الممكن أن تخضع لأية دراسة أو تمحيص على نحو علمى أو رياضى .

أما بعد أن فتحت الدكتورة روس طريق البحث فقد اتضح فعلا أن هذه الظواهر بالغة الأهمية ، وأنها جديرة بكل فحص وتمحيص ، وأنها يمكن أن تخضع لمناهج العلم الحديث . وبخاصة منها الأسلوب الذى يعتمد على المسح الواسع ، وعلى المنهج الإحصائى — الرياضى لتجميع النتائج ، وعلى المنهج الفيزيائى — النفسى لتحليلها ، وللخروج منها بدلالاتها المحتومة .

وبلغ من أهميتها أن دخلت إلى العديد من الجامعات الأمريكية ، وإلى مراكز البحث فى الباراسيكولوجى ، وفى طبيعة الإنسان بوجه عام[1] ، محدثة تغيرات

---

(١) ومع مراعاة أن غالبية الجامعات هناك تحاول أن تكون لها أبحاثها الخاصة بها ، وقلما تعتمد على أبحاث الجامعات الأخرى ، أو تتصور أن تكون مهمتها هى مجرد منح الدبلومات للخريجين ! ! ...

جذرية فى مفاهيم الحياة والموت ، أو بالأدق فى مفاهيم الحياة بشقيها ، ناهيك بأساليب التمريض فى المستشفيات .

كما بلغ من تقدير دوائر العلم لهذه الرائدة أن أصبح بعض المؤلفين يشبهها بالعالمة الفرنسية مارى كورى Marie Curie مكتشفة عنصر الراديوم ، والتى احتلت مكانة مرموقة بين علماء القرن العشرين لدورها الجليل فى تخفيف آلام الأورام الخبيثة .

ولكن يبدو أن خدمات إليزابث روس من ناحية اكتشاف بعض أسرار الطبيعة ، ومحاولة تخفيف آلام بنى البشر تتجاوز فى اتساع نطاقها ، وفى عمق أهدافها ، خدمات مارى كورى . وذلك حتى مع التسليم بدور هذه الأخيرة فى تخفيف آلام الأورام الخبيثة عن طريق اكتشاف عنصر الراديوم ، وهذا ما سوف يتضح تماماً للقارىء بعد الاطلاع على باقى مباحث هذا الفصل .

المبحث الثانى

دور ريموند مودى

لعل أبرز الأسماء المعاصرة فى هذا النوع من البحث هو الطبيب النفسى العضوى ريموند مودى Raymond Moody الذى حاز فيه سمعة عالمية . وقد أجرى مودى هذا أبحاثه على أكثر من مائة من حالات « الموت الظاهرى » ، أو « الموت الطبى ». أى تلك الحالات التى يجزم فيها الطب بموت الشخص لتوقف كل أعراض ودلائل الحياة فيه — بما فيها النبض والتنفس والوعى والحركة . . . لكن قد تعاد إليه الحياة ببعض الأساليب الحديثة بعد فترة قد تصل إلى عشرين دقيقة من التشخيص الخاطىء للموت البيولوجى .

وقد درّس هذا العالم الفلسفة وعلم النفس بجامعة فرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكية ، ثم قام بالتدريس فى جامعة كارولينا الشمالية North Carolina وابتدأ بالاهتمام بظاهرة « رؤى المحتضرين » منذ حوالى عشرين عاماً .

وقد قسم مودى الاختبارات التى محصها إلى ثلاثة أنواع : —

١ — اختبارات مع أشخاص قال أطباؤهم عنهم إنهم ماتوا بالفعل .

٢ — اختبارات لأشخاص أصيبوا بإصابات قاتلة فى حوادث متنوعة ، أو وصل مرضهم إلى مرحلة الموت الطبيعى الهادىء .

٣ — اختبارات لأشخاص حضروا حالة موت بعض معارفهم ، وسمعوا منهم مضمون « اختبارات الموت » .

وهو يقول إن معظم حالات النوع الثالث متوافقة مع حالات النوعين الأول والثانى ، إلا أنه — رغم ذلك — أسقط بعضها حتى يبعد أى ظل للشك فيها ولتضييق مجال الدراسة . كما تعمد تجاهل الحالات التى انتهت بوفاة أصحابها فعلا ، فلم تنجح معهم السبل المألوفة للإنعاش ولإعادة النبض والتنفس إليهم .

وأغلب رؤى المحتضرين — كما يقول — تدعو للتفاؤل وللترحيب بالموت . وهى تدور فى الغالب حول رؤية بعض أرواح الأقارب من الراحلين وحول الإحساس بالارتفاع عن الأرض مع التحليق فى الفضاء ، مع حلول بعض المشاعر بالهـدوء والسلام وزوال المتاعب .

عن كتابه « حياة بعد حياة »

وأول كتاب أصدره مودى فى هذا الشأن أعطاه عنوان « حياة بعد حياة »[١] . وهو عبارة عن دراسة هادئة موثقة لرؤى المحتضرين الذين بلغ عددهم مائة محتضر . بل هو دراسة جادة موضوعية إلى حد أنه شد انتباه دوائر العلم بنفس المقدار الذى شد به جمهور المثقفين فى أرجاء عديدة من العالم .

فقد ظهرت أولى طبعات هذا الجهد الجليل فى شهر نوفمبر من عام ١٩٧٥ .

---

(١) Life After Life 1977.

وقبل أن ينصرم العام أعيدت طباعته مرة ، ثم أعيدت طباعته ست طبعات فى عام ١٩٧٦ ، ثم تسع طبعات فى عام ١٩٧٧ ، ثم أربع وثلاثين طبعة فى عام واحد وهو عام ١٩٨١ ، ولا أعرف كم بلغت طبعاته حتى الآن . . .

وترجم هذا الكتاب إلى ثلاثين لغة حية . وحتى حلول عام ١٩٨١ جاوز توزيعه ثلاثة ملايين نسخة بالانكليزية ، ومليون بالفرنسية ، ولا أعلم كم بلغ توزيعه الآن ، ولكن قال فيه أحد المؤلفين إنه أوسع الكتب رواجاً فى القرن العشرين كله ! !

ومدى رواج أى كتاب لا يصلح أن يكون دليلا حاسماً على صحة بعض أو كل ما ورد به ، لكنه بالأقل يشير إلى مدى اهتمام الرأى العالمى بتحقيقات هذه الظواهر ، وبترتيب نتائجها الطبيعية . فضمانات الصحة فى نتائج هذه التحقيقات مستمدة قبل كل اعتبار من سمعة ريموند مودى بوصفه أستاذاً وعالماً فى النفس ، ومن ترابط هذه النتائج مع تلك التى سجلها علماء آخرون لا يقلون عنه مكانة [١] .

وفى هذا الكتاب يعالج ريموند مود عدة أمور أساسية بشأن « ظاهرة الموت » ، وبشأن « اختبار الوفاة » . خصوصاً من زاوية « مدى قابلية هذا الاختبار للمحو من الذاكرة » ، و « قدرة المحتضر على أن يسمع صوت الأطباء عندما يشخصون وفاته » ، و « مدى إحساسه بالسلام والاطمئنان » ، و « سماعه لأصوات قادمة من الأثير » ، و « إحساسه بالمرور من نفق مظلم » ، و « بالخروج من جسده » ، و « بملاقاته المحتملة لأطياف تعيش فى الأثير » ، و « إحساسه بكائن من النور قد يخف إلى لقائه » .

وكذلك قدرة المحتضر على « أن يستعيد فى ذاكرته شريط حياته على الأرض » ، وعلى « الوصول إلى حدود حياته الأرضية » ، وأحياناً على « العودة إلى جسده العضوى » (عند نجاح سبل الإنعاش الحديثة فى إعادته إلى الحياة) .

وكذلك أيضاً « مدى رغبة المحتضر فى رواية اختباره للآخرين » ، و « تأثير هذا

---

(١) وذلك خصوصاً بعد أن أخضع هؤلاء العلماء الآخرون دراسة هذه الظواهر للمنهج الإحصائى — الرياضى على أوسع نطاق ممكن ، كما سيرد فيما بعد .

الاختبار فى مجرى حياته اللاحقة على الأرض » إذا ما عاد إلى الحياة ، وماهية « نظرته الجديدة إلى الموت » ، ومع محاولة « التوفيق بين هذه النظرة والنظرة الدينية للموت » .

ثم يضع مودى عدة أسئلة متنوعة لهذا الشأن مع الإجابة عليها ، ومع تسجيل انطباعاته الخاصة بوصفه باحثاً معنياً فى المقام الأول بالتحليل النفسى من ناحية صلته بهذه الموضوعات الجديدة نسبياً على علم النفس فى طوره الراهن .

وكل موضوع من هذه الموضوعات يستحق وقفة طويلة عنده . . . لكن كيف يتأتى تحقيق ذلك فى المقام الحالى ؟ ! .. لذا اكتفى هنا ببضع وقفات عابرة عندطائفة محدودة من هذه الموضوعات التى أشعر أنها قد تعنى القارىء أكثر من غيرها .

عن الخروج من الجسد العضوى

ومن ذلك مثلا أن مودى يقرر أن المحتضر عند خروجه من جسده العضوى قد ينظر إلى هذا الجسد من الخارج كما لو كان مجرد مشاهد أو متفرج غريب لا ينتمى إليه . ويسرد فى هذا الشأن أقوالا لمحتضرين عديدين تحتوى على تفصيلات عـديدة كما هو الشأن فى كل فصول هذا الكتاب .

وفى هذا الشأن يقرر مودى أن من البديهيات السائدة عند غالبيتنا أننا نتعرف على أنفسنا عن طريق أجسادنا العضوية وحدها ، فنحن نسلم طبعاً بأن لنا عقولا أيضاً ، لكن تبدو عقولنا لغالبية الناس أكثر قابلية للفناء من أجسادنا ، لأن العقل (فى تقديرهم) ينبغى أن يكون محض نتيجة نشاط كهربى وكيميائى يجرى بين حنايا المخ الذى هو جزء من الجسد العضوى .

ويبدو للكثيرين أن من الجهد المستحيل أن يتصوروا كيف يمكن أن يوجدوا على أية صورة إلا أن تكون هى صورة الجسد العضوى الذى تعودوا عليه .

وأولئك الأشخاص الذين ناقشتهم (عن رؤاهم) لم يكونوا مختلفين فى جملتهم عن الإنسان المتوسط من ناحية موقفهم من هذا الموضوع . ولذا فإن الإنسان المحتضر (بعد مروره بنفق مظلم وسرد بعض اختبار مروره به) تظهر له مفاجأة محيرة . لأنه

عند هذه النقطة قد يجد نفسه ناظراً إلى جسمه العضوى الخاص من نقطة ما تقع خارجة عنه كما لو كان مشاهداً ، أو كما لو كان شخصاً ثالثاً فى الغرفة ، أو كما لو كان شاهداً لوجوه وأحداث تجرى على خشبة مسرح أو على شاشة سينما .

وبعد أن يسرد مودى تفصيلات هذا الموقف الغريب كما وردت على لسان بعض المحتضرين[1] ، يقول : إن الإنسان بمقدوره حتماً أن يتخيل أن ثمة أفكاراً ومشاعر متباينة ينبغى أن تجرى فى عقول أولئك الأشخاص الذين يجدون أنفسهم فى هذه الورطة. فهناك كثيرون يجدون أن فكرة الوجود خارج أجسادهم غير متصورة ، حتى ولو كانوا يمرون بهذا الاختبار . ولذا فهم يشعرون بارتباك كامل بشأن الموضوع برمته ، ولا يربطونه بالموت لفترة طويلة من الوقت . فهم فى حيرة بشأن ما يجرى لهم ، ويتساءلون لماذا يرون أنفسهم — بغتة — عن بعد ما منهم ، كما لو كانوا مجرد مشاهدين ؟ !

* * *

وردود الفعل الانفعالية إزاء هذا الموقف الغريب تتفاوت كثيراً . وابتداء فإن غالبية أولئك الأشخاص تقرر أنه كانت تراودهم رغبة ملحة للعودة إلى أجسادهم ، وكانت تعوزهم الفكرة عن كيفية تحقيق هذه الرغبة . لكن يقرر آخرون أنهم كانوا خائفين ، وبالأكثر متضايقين ، وإن كان ثمة أشخاص منهم قد اتخذوا مواقف أكثر إيجابية للتخلص من وضعهم الشاذ .

وبعد أن يسرد مودى طائفة من الأقوال بهذا الصدد يقول إنه رغم غرابة حالة التحرر من الجسد هذه ، فإن هذه الحالة قد بوغت بها الشخص المحتضر فجأة إلى حد أنها قد تحتاج إلى وقت كاف حتى يبدأ فى تفهم مغزى هذا الاختبار . فهو يدرك أن عليه أن يظل خارجاً عن جسده لفترة ما ، محاولا — بغير جدوى — أن يتفهم كل الأمور التى تجرى له ، والتى تتدافع فى عقله . وذلك بغير أن يدرك أنه يحتضر ،

---

(١) نفس المرجع ص ٣٤ — ٣٧ .

أو حتى أنه قد مات بالفعل . فإذا تحقق هذا الإدراك ، فإنه يتحقق بطاقة انفعالية قوية مثيرة أفكاراً متنوعة .

وفى حالة واحدة أو حالتين « درست » أشخاصاً محتضرين كانت نفوسهم ، أو عقولهم ، أو مشاعرهم (أو سمِّها ما شئت) قد تحررت من أجسادهم . فقالوا بعد هذا التحرر إنهم كانوا لا يقطنون فى أى نوع من الأجساد ، بل شعروا كما لو كانوا محض وعى (أو شعور)[1] .

فقد روى لى شخص أنه فى أثناء اختباره شعر كما « لو كان بمقدورى أن أرى كل شىء من حولى — بما فى ذلك كل جسدى عندما كان راقداً على الفراش — وذلك بدون أن أشغل أى فراغ » . أى أنه يبدو كما لو كان مجرد نقطة من الوعى .

وفئة أخرى قالت « إنها لا تتذكر فعلا ما إذا كانت أم لم تكن تحتل أى نوع من الجسد بعد الخروج من جسدها العضوى ، لأنها كانت مأخوذة تماماً بتلك الأحداث التى كانت تجرى من حولها » .

أوصاف الجسد الروحى

لكن غالبية « أشخاصى » تقول مع ذلك إنها وجدت نفسها بداخل جسد آخر بمجرد التحرر من الجسد العضوى . وهكذا نجد أنفسنا مباشرة بداخل منطقة يصعب فيها جداً البت برأى . فهذا « الجسد الجديد » يمثل واحداً من وجهين أو ثلاثة من اختبارات الموت التى قد تمثل فيها صعوبة التعبير اللغوى أعتى العقبات . فتقريباً كل واحد من أولئك الذين حدثونى عن هذا « الجسد » تردد ثم قال « أنا لا يمكننى أن أصفه ، أو أن أبدى فيه أية ملحوظة من هذا القبيل » .

وعلى ذلك فإن أوصاف هذا الجسد يشبه بعضها البعض الآخر إلى حد قوى . فرغم أن الأفراد المختلفين يستخدمون كلمات مختلفة ، ويظهرون أوجه شبه مختلفة ، إلا أن هذه الأساليب المتباينة فى التعبير يبدو أنها تلتقى كثيراً فى ميدان التصوير .

---

(١) نفس المرجع ص ٣٧ — ٤٢ .

وكذلك فإن الروايات المختلفة تتلاقى بوضوح حول ملكات هذا الجسد الجديد وخصائصه . ولذا فإننى سوف أستخدم وصفاً تتلخص فيه جميع ملكاته بشكل جيد ومحايد ، وهو وصف « الجسد الروحى »[١] الذى سمعته من بعض « أشخاصى » .

فالأشخاص المحتضرون يبدون متنبهين — فيما يبدو — لأجسادهم الروحية فى حدود قدراتهم المحدودة . فهم يجدون عندما يغادرون أجسادهم العضوية ، أنهم رغم محاولتهم اليائسة فى أن يخبروا الآخرين عن وضعهم الغريب فإن أحداً لا يسمعهم فيما يبدو . ثم يسرد مودى طائفة من أقوال عدد من المحتضرين بهذا الشأن[٢] . . .

ويقول بعدئذ إن كل المحتضرين قرروا — بلا خلاف فيما بينهم — أن جسدهم الروحى عديم الوزن ، وقد لاحظوا ذلك ابتداء عندما وجدوا أن بمقدورهم الطفو إلى سقف الحجرة ، أو فى الهواء . وقد وصف بعضهم توافر « إحساس بالطفو » ، أو « إحساس بانعدام الوزن » أو « إحساس بالاندفاع أو بالانجراف »[٣] . drifting feeling مع الارتباط بأجسادهم الجديدة .

وفى المعتاد عندما نكون فى أجسادنا العضوية تكون لدينا عدة أساليب للإدراك تنبئنا عما إذا كانت أجسادنا بأعضائها المختلفة تشغل فراغاً ما فى أية لحظة معينة ، وعما إذا كانت تتحرك . وفى هذا المجال تلعب حاستا البصر والاتزان دوراً هاماً بطبيعة الحال . لكن ثمة حاسة متصلة بهما هى حاسة تأثير العقل فى الأعضاء Kinesthesia وهى لها دورها فى حاسة الحركة وفى تنبيه أوتارنا العصبية ، ومفاصلنا ، وعضلاتنا .

---

(١) يستخدم المؤلفون أوصافاً متنوعة فى التعبير عن هذا الجسد ، لكن كلها متداخلة فيما بينها ، ومنها : « الجسد الاثيرى أو الكوكبى Astral ، أو السيال Fluidiqc ، أو اللا عضوى Inorganic ، أو داخل الذرى Intra - atomic ، أو غير المنظور Invisible ، أو الحيوى Vital ، أو المرن Plastic . . . » ، أو غيرها ، وكلها تشير إلى أوصاف موضوعية متداخلة فيما بينها عن جسد غير خاضع لحواسنا المألوفة .

(٢) نفس المرجع ص ٤٢ — ٤٥ .

(٣) بمعنى شعور المرء بأنه مشدود بقوة ، وبطريقة لا إرادية إلى اتجاه معين ، أو إلى جاذبية غير جاذبية المادة والحياة المادية .

وفى المعتاد نحن لا نتنبه إلى المشاعر التى تجىء من ناحية الحاسة الأخيرة ، لأن إدراكنا لها قد تبلد بسبب استخدامها المتواصل . لكن إذا ما انقطعت فجأة هذه الحاسة فلا بد أن يستشعر المرء غيابها فوراً . ولقد قرر لى عدد لا بأس به (من المحتضرين) أنهم شعروا بغياب الأحاسيس الفيزيقية بثقل الجسد ، وبالحركة ، وبالإحساس بالوقت عندما أصبحوا فى أجسادهم الروحية .

* * *

وفى الواقع إن الإنسان فى جسده الروحى يكون فى وضع ممتاز بالمقارنة بالأشخاص المحيطين به . فهو بمقدوره أن يراهم وأن يسمعهم ، لكن ليس بمقدورهم أن يروه أو أن يسمعوه . إلا أنه عندما يمسك بقبضة الباب يجد أنها تنفذ خلال يديه ، وهذا أمر لا يعنيه كثيراً عندما يتبين له سريعاً أن بمقدوره أن يخترق الباب ولو كان مغلقاً . وكذلك السفر عندما يكتشف أسلوبه ، فإنه يصبح يسيراً جداً فى تلك الحالة . فالأشياء المادية لا تكون حاجزاً . والحركة من مكان إلى آخر يمكن أن تصبح سريعة جداً ، بل فورية .

وأكثر من هذا هو العجز عن إشعار المحيطين بالمحتضر بوجوده بينهم ، فإن إجماع أولئك الذين مروا بهذا الاختبار منعقد على أن الجسد الروحى يمثل « شيئاً يتعذر وصفه رغم وجوده » . والإجماع أيضاً منعقد على أن هذا الجسد الروحى له شكل أو منظر ، أحياناً فى شكل غير دائرى أو غير محدد . ولكن يكون شكله أحياناً هو نفس شكل الجسد العضوى . بل تكون له أحياناً انعكاسات أو أسطح مماثلة للأذرع ، وللسيقان وللرأس . . . الخ .

وحتى عندما يكون مظهره العام نسبياً غير مستقر من الخارج in configuration فإن « أشخاصى » كثيراً ما يقولون إن له نهايات بمعنى وجود قاع ورأس محددين ، وحتى الأعضاء المشار إليها تكون كذلك .

وقد استخدموا أوصافاً شتى فى الوصف مثل الضباب ، أو الغيم ، أو الدخان ،

أو البخار ، أو الشفافية ، أو غيمة من الألوان ، أو كومة هشة ، أو نموذج من الطاقة ، أو غير ذلك من المعانى المتقاربة .

وغالبية المحتضرين لاحظت أيضاً انعدام الإحساس بالوزن فى تلك الحالة من الخروج من الجسد ، فالوقت لم يكن أبداً عنصراً داخلا فى اختبارهم ، وذلك على عكس الحال فى حياتهم الفيزيقية (١) .

عن حاسة السمع فى الجسد الروحى

وحاسة السمع فى الحالة الروحية يمكن أن يطلق عليها هذا الوصف فيما يبدو بمقتضى المجاز ، لأن غالبية المحتضرين تقول إنها لا تسمع فى الواقع كلمات فيزيقية أو أصواتاً . بل يبدو بالأكثر أنهم يلتقطون أفكار الأشخاص المحيطين بهم . وذلك يبدو نوعاً من الانتقال المباشر للأفكار الذى يلعب دوراً هاماً فى المراحل التى تلى اختبارات الاحتضار .

فى هذه الحالة المتحررة من الجسد العضوى يبدو المحتضر معزولا عن المحيطين به . فهو بمقدوره أن يرى الآخرين ، وأن يتفهم أفكارهم ، لكن هؤلاء ليس بمقدورهم أن يروه ولا أن يسمعوه . ولذا فإن الاتصال بالآخرين يكون فى الواقع مقطوعاً ، حتى عن طريق حاسة اللمس ، ما دام الجسد الروحى تعوزه الصلابة .

ولذا فلا يبدو غريباً أن تثار عند الراحل بعد فترة من الوقت أحاسيس بالعزلة وبالوحدة . كما روى لى أحدهم أنه كان بمقدوره أن يرى كل شىء من حوله فى المستشفى ، بما فى ذلك جميع الأطباء والممرضات وجميع موظفى المستشفى وهم يقومون بأعمالهم . ومع ذلك فلم يكن بمقدوره أن يخاطبهم بأية طريقة « ولذا فقد كنت وحيداً بشكل محزن » . كما روى كثيرون آخرون بعض مشاعر الوحدة التى انتابتهم فى تلك اللحظة .

---

(١) نفس المرجع ص ٤٥ – ٤٧ .

عن حضور كائنات أخرى

لكن سرعان ما تتبدد مشاعر الوحدة عند المحتضر بمقدار ما يذهب إلى مدى أعمق مما كان فى اختبار اقتراب الموت . فعند نقطة معينة يفد إليه آخرون لكى يساعدوه فى التحول الذى هو مقبل عليه . وهؤلاء قد يتخذون أشكال أرواح أخرى ، كثيراً ما تكون هى أرواح أقارب أو أصدقاء راحلين فى نفس الصورة التى عرفهم بها فى حياته . وفى حالات عديدة يرى المحتضرون أنه قد ظهر لهم كائن روحى من طراز مغاير كثيراً .

ويقول مودى إن فئة غير قليلة من المحتضرين قالت له إنها عند نقطة معينة كانت أحياناً مبكرة فى مرحلة الاحتضار – وأحياناً أخرى بعد أن حدثت لأفرادها أحداث متنوعة أخرى – أصبحوا متنبهين إلى وجود كائنات روحية أخرى إلى جوارهم . كائنات كانت فيما يبدو تريد تسهيل عملية رحيلهم ، وفى حالتين منها قامت بإخبارهم بأن موعد الرحيل لم يأزف بعد ، وأنهم يجب أن يعودوا إلى أجسادهم العضوية .

وفى حالات معينة كانت هذه الأطياف أو الكائنات الروحية معروفة للمحتضرين لأنها من أقاربهم . وفى حالات أخرى كانت هويتها مجهولة منهم . ويعتقد بعض المحتضرين أنها عبارة عن « أرواح حارسة » guardian spirits ، بل لقد قال طيف منها لأحد المحتضرين « لقد كنت أعاونك فى هذه المرحلة من حياتك ، لكننى الآن سأعهد إلى آخرين بأمر العناية بك » .[1]

وهذه الكائنات الروحية كانت فى النهاية تختفى ويصبح شكلها غير واضح . وقال أحد المحتضرين « لقد كنت أتحدث وأنا فى الفضاء إلى أشخاص ، ومع ذلك ليس بمقدورى أن أقول إننى كنت أتحدث إلى « أشخاص عضويين » لكننى كنت أشعر بوجود أشخاص من حولى ، وبتحركهم ، رغم أنى لم أقدر على رؤيتهم .

ومن آنٍ إلى آخر كان بمقدورى أن أتحدث إلى أحدهم ، بدون أن أراهم -

---

(١) المرجع السابق ص ٥٢ – ٥٥ .

وعندما كنت أتحير بشأن ما يجرى من حولى ، كنت دائماً أتلقى فكراً من أحدهم يطمئننى بأن كل شىء على ما يرام ، وأننى أموت موتاً هادئاً ، ولذا فإن حالتى لم تعد تسبب لى قلقاً . كما كنت أتلقى جواباً عن كل سؤال أسأله ، فلم يكن عقلى فراغاً بالنسبة لهم » .[١]

ماذا عن الضوء و « الكائن الضوئى » ؟

ثم يقول مودى : لعل العنصر الشائع فى هذه الرؤى والذى قد يبدو فى نفس الوقت أبعدها عن التصديق لكنه يمثل على سبيل القطع أقوى العناصر تأثيراً فى نفس الإنسان — هو الحديث عن ضوء مشرق جداً . ويبدو هذا المنظر فى البداية كثيفاً لكنه سرعان ما يتحول إلى الإشراق حتى يصل إلى المستوى الذى لا تعرفه دنيانا .

وهذا الضوء الذى يصفونه بأنه أبيض أو ساطع له بريق يعلو على التصديق . ومع ذلك فهو لا يؤذى العين على أى وجه ، ولا يسبب لها « زغللة » ما ، ولا يحول بينها وبين قدرة رؤية الأشياء الأخرى المحيطة بهم (وربما يكون السبب هو أنهم فى هذه اللحظة لا تكون لديهم أعين فيزيقية حتى تصاب « بالزغللة ») .

ولم يصدر عن محتضر واحد أى شك فى أن وراء هذا الضوء الساطع يوجد « كائن من الضوء » a being of light . بمفهوم أنه يمثل كائناً شخصياً ، بل كائناً له شخصية محددة تماماً . وما ينبعث عن هذا الكائن من حب ومن دفء إلى الشخص المحتضر يقع بعيداً وراء قدرة الكلمات على التعبير . ويشعر هذا المحتضر أنه محوط تماماً بهذا الكائن ومحمول إليه ، بمنتهى الراحة والقبول . كما يشعر بجاذب مغناطيسى لا يقاوم نحو هذا الضوء حتى يغمره بطريقة لا خيار للمحتضر فيها .

ورغم أن هذا الوصف « للكائن الضوئى » لم يتغير عند أولئك الذين تحدثوا عنه ، إلا أن تعيين هويته قد تباين من شخص إلى آخر تبايناً قد يبدو أنه من وظيفة « الخلفية الدينية » للمحتضر ، أو ما قد ينسب إلى ما شب عليه من آراء ومعتقدات[٢] .

* * *

(١) المرجع السابق ص ٥٥ — ٥٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٥٨ — ٥٩ .

وبعد برهة قصيرة من ظهور هذا الكائن الضوئى يبدأ فى التراسل الذهنى مع المحتضر بدون صدور صوت فيزيقى منه أو من المحتضر لتبادل الحديث (أى أن الحديث يجرى عن طريق التلباثى أو التخاطر العقلى) . ونتيجة لذلك تختفى كل احتمالات لسوء الفهم ، أو للكذب فى الحديث . كما تختفى عقبة تباين اللغات أو اللهجات .

وفى المعتاد روى لى الأشخاص الذين رؤوا هذا الكائن الضوئى أنهم شعروا بأنه يساءلهم أسئلة من هذا القبيل : « هل أنت مستعد للموت » ؟ « هل أنت جاهز للموت » ؟ ، « ماذا فعلت بحياتك مما تريد أن تظهره لى » ، و « ماذا أنجزت فى حياتك مما قد تراه كافياً ؟ » . . .

وكلهم على اتفاق فى أن توجيه هذه التساؤلات لم يكن لدينونة ما ، أو لاتهام ، أو لتأنيب ، بل كانوا يشعرون بالحب يجىء متدفقاً من ناحية هذا الكائن الضوئى ، ومعه التقبل مهما كان نوع إجابتهم . ويبدو بالأكثر أنه كان يريد منهم فحسب أن يتفكروا فى نوع حيواتهم حتى يخرجهم منها . فالتساؤل كان سقراطياً (أى نظرياً وفلسفياً) . ولم يكن لاستطلاع أسرارهم ، بل لمساعدة الشخص المحتضر على أن يشق طريقه بنفسه إلى معرفة الحقيقة[1] . . ثم يسرد مودى بعضاً من هذه الحالات ، لكى ينتقل إلى موضوع « استرجاع الماضى » .

عن استرجاع الماضى ؟

والظهور المبدئى لهذا « الكائن الضوئى » ولتوجيه أسئلته عن غير طريق النطق كان مقدمة للحظة من التركيز الذهنى المكثف تماماً ، الذى فيه يستعرض الكائن شريطاً شاملا مرئياً لحياته Panoramic Review . ويظهر منه عادة أن بمقدور هـذا الكائن أن يرى حياة المحتضر وهى تعاود مسيرتها من جديد ، بدون أن يحتاج إلى ذكر أية بيانات عنها ، لأن نيته الوحيدة منحصرة فى تحريك التفكير نحو استرجاع الماضى .

وهذا الاسترجاع لا يمكن وصفه إلا بأنه استخدام للذاكرة ، بما أن الذاكرة

---

(١) المرجع السابق ص ٥٩ — ٦٣ .

هى أوثق الظواهر اتصالا بهذا الاسترجاع ، لكن لها خصائص تجعلها بمنأى عن أية صورة مألوفة للتذكر ، خصوصاً من ناحية السرعة . فالاسترجاع هنا يحدث فوراً وبكل التفصيلات ، وبلفته ذهنية واحدة . وقد أجمع الرواة على أن هذا الاسترجاع لم يستغرق أكثر من لحظة واحدة بمقياس الزمن الأرضى .

كما أجمعوا على أن الاسترجاع الذى جرى بسرعة — وفى شكل تحريك صور مرئية — كان حيوياً وحقيقياً . وكانت الصور فى بعض الحالات ملونة ، وذات أبعاد ثلاثة (أى مجسمة) بل ومتحركة أيضاً . وكل صورة منها كان بالمقدور إدراكها والتعرف عليها . بل حتى الانفعالات والمشاعر المرتبطة بالصور كان بالمقدور اختبارها كالصور المرئية .

وأولئك الذين ناقشتهم من أصحاب هذه الرؤى قالوا إنهم لا يقدرون على تفسير هذا الاسترجاع ، لأن كل ما فعلوه فى حياتهم كان ماثلا أمامهم فى هذا الاسترجاع من أتفه الأحداث إلى أوفرها فى مغزاها . حين قرر آخرون أنهم شاهدوا فحسب المعالم الهامة لما جرى فى حياتهم . وقرر لى آخرون أيضاً أنهم قد ظلوا لفترة من الوقت يتابعون ما جرى فى هذا الاسترجاع لأحداث حياتهم كما جرت فى دقة لا تصدق .

ولقد تفهم البعض الاسترجاع على أنه كان بمثابة جهد تربوى من جانب هـذا «الكائن الضوئى » . وأنهم عندما شاهدوا شريط الاسترجاع كان هذا الكائن فيما يبدو يقوم بالتركيز على أهمية أمرين فى الحياة : وهما أن نتعلم كيف نحب الآخرين ، وأن نحصل على المزيد من المعرفة[1] .

* * *

ويقول مودى فى موضع لاحق إنه مما ينبغى ذكره أيضاً أن ثمة تقريرات من بعض المحتضرين تقول إن اختبار « استرجاع الماضى » مر بهم بدون ظهور هذا « الكائن الضوئى » . وكقاعدة عامة فإن فى تلك الاختبارات التى ظهر فيها هـذا

---

(١) المرجع السابق ص ٦٤ — ٦٥ .

الكائن مشرفاً بحسب الظاهر على اختبار الاسترجاع ، كان الاختبار أشد وقعاً على نفس صاحبه .

لكن مع ذلك فإن الاختبار كان فى المعتاد حياً ، وسريعاً ، وحقيقياً بنفس المقدار . وبصرف النظر عن ظهور هذا الكائن الضوئى أو عدم ظهوره ، وبصرف النظر عما إذا كان المرور بهذا الاختبار قد حدث بسبب موت حقيقى ، أم بسبب اقتراب حقيقى وثيق من الموت (١) .

ثم يقول مودى : إنه فى حالات قليلة وصف لى أولئك المحتضرون كيف أنهم فى أثناء اختبارات الاقتراب من الموت التى مرت بهم كانوا — فيما يبدو — يقتربون مما يصح أن يوصف بأنه حاجز أو فاصل من نوع ما . وأن لهذا الحاجز أو الفاصل أشكالا متنوعة . فقد ظهرت تلك الحواجز فى صورة مجرى من الماء ، أو من الضباب الرمادى ، أو فى صورة باب ، أو حاجز فى حقل ، أو مجرد خط .

ولذا فإنه بمقدور الإنسان أن يثير التساءل عما إذا كانت هذه الحواجز أو الفواصل مجرد جذور مغروسة فى أذهان رواتها أو فى اختباراتهم . وإذا صح هذا النظر فإن هذه الأقوال المتنوعة فى وصف « الحواجز أو الفواصل » قد تمثل محض أساليب فردية متنوعة فى التفسير ، أو فى تذكر الاختبار .

عن العودة ثانية

ثم يقول مودى إنه من الواضح أن الأشخاص الذين « تحدثت » إليهم كان عليهم أن يعودوا ثانية بعد المرور بمرحلة ما من مراحل اختبار الرؤية ، ولكن حدث فى المعتاد تغير هام فى سلوكهم منذ هذا التاريخ .

ولتذكروا أن أغلب المشاعر الشائعة التى يصفها المحتضرون فى اللحظات القليلة التى تلى بدء الاحتضار هى مشاعر اليأس من محاولة الدخول ثانية إلى أجسادهم ، مع الشعور بأسى بالغ للفشل . ومع ذلك فبمجرد أن يصل المحتضر إلى عمق معين من

---

(١) نفس المرجع ص ٦٨ .

أعماق اختباره نجده لا يرغب فى العودة ثانية ، بل إنه قد يقاوم ضد هذه الرغبة فى العودة .

وهذه هى بوجه خاص حالة أولئك الذين ذهبوا فى اختبارهم بعيداً إلى حد الشعور بوجود ذلك « الكائن الضوئى » . وقد قال لى أحدهم « لم أكن أرغب أبداً فى أن أغادر حضرة هذا الكائن » .

واستثناء من هذا التعميم — وهو من قبيل الاستثناء الظاهرى لا الحقيقى — ذكرت لى النساء اللاتى كن أمهات لأطفال صغار فى وقت الاختبار أنهن مع رغبتهن البقاء فى أمكنتهن (هناك) إلا أنهن قد شعرن بالتزام أدبى بأن يحاولن العودة إلى هنا لتربية أطفالهن .

وفى حالات أخرى عديدة ذكر لى بعض الأشخاص أنهم رغم إحساسهم بالراحة وبالأمان فى حالتهم الجديدة — وهم بدون جسد عضوى — إلا أنهم كانوا يشعرون بالسعادة لو تمكنوا من العودة لإنجاز أعمال هامة كانوا لم ينجزوها بعد . وفى بعض حالات قليلة كانت تراودهم الرغبة فى أن يتمموا تعليمهم الذى لم يتم (مثل رغبتهم فى الحصول على مؤهل علمى كانوا يتوقون إلى الحصول عليه)[1] .

ثم يقول مودى : إنه ينبغى أن أؤكد هنا أن أى إنسان مرَّ بإختبار من هذا النوع لا يساوره أدنى شك فى صحته وفى أهميته ، وجميع المناقشات التى جرت مع المحتضرين تجزم بذلك .

وهؤلاء لم يذهبوا للمناداة بصحة اختباراتهم ، أو لإقناع الآخرين بها ، بل بالعكس وجدت أن أغلبهم كانوا يميلون إلى الصمت وإلى كتمانها عن الآخرين . لكن الأثر الحقيقى لهذه الاختبارات كان فى تغيير مجرى حياتهم هم أنفسهم ، فأصبحت نفوسهم أوفر رقة واطمئناناً . وقد ذكر لى عديدون أن آفاقهم قد أضحت أوسع مما كانت وأعمق ، وأنهم بسببها أصبحوا أوفر اهتماماً بمصائرهم المقبلة[2] .

---

(١) نفس المرجع ص ٧٧ — ٨٤ .
(٢) نفس المرجع ص ٨٨ — ٩٣ .

نظرات جديدة إلى الموت

ثم يستطرد مودى إلى القول بأن من طبيعة هذه الاختبارات أن يكون لها تأثير عميق فى موقفنا من الموت العضوى . خصوصاً عند أولئك الذين لم يتوقعوا فيما مضى أن يجرى للإنسان أى شىء فيما بعد الموت العضوى .

ولقد عبّر لى كل شخص أعرفه — وبشكل أو بآخر — أنه أصبح بعد لا يخشى الموت . وفى المقام الأول فإن ثمة صوراً من الموت لا يرغب فيها أى إنسان ، ثم إن أى واحد من هؤلاء الأشخاص لا يرغب فى الموت . بل إنهم كلهم يشعرون أن وراءهم بعض مهام عليهم أن يقوموا بها طالما كانوا أحياء عضوياً .

والعلة فى أن الموت لم يعد يخيف هؤلاء الذين اختبروا اختبارات الرؤية ، أنهم لم تعد عندهم أية شكوك حول استمرار حياتهم بعد موتهم العضوى . فالقضية لم تعد عندهم محض احتمال مجرد ، بل واقعة حقيقية قد اختبروها بأنفسهم .

ولقد « ناقشت » فيما سبق مفهوم الفناء الذى يستخدم كلمتىْ النوم والنسيان ليعبّر بهما عن الموت . أما أولئك الذين اختبروا رؤية الاحتضار فهم يرفضون هذه المفاهيم ، ويتقبلون الموت بوصفه تحولا من حالة إلى حالة أخرى . أو بوصفه مدخلا إلى حالة — فى الوعى أو فى الوجود — أسمى مما كانت .

وحتى أولئك الذين كان لديهم اقتناع تقليدى بطبيعة عالم ما بعد الحياة ، يبدو أنهم تباعدوا عن ذلك إلى الاقتناع بما لمسوه بأنفسهم من اختبارهم الخاص . وفى الواقع لم أصادف شخصاً واحداً — فى جملة التقارير التى جمعتها — يروى نفس الصورة الأسطورية عما يجرى بعد الموت . فلم يصف واحد منهم سماء ذات بوابات من اللؤلؤ ، أو شوارع من الذهب ، أو ملائكة ذوات أجنحة وتعزف على القيثارات ، ولا جحيماً من لهيب تقطنه شياطين ذات مناجل [1] .

* * *

(١) يراعى عند وزن هذه الأقوال أن هؤلاء المحتضرين وقفوا لمدة لحظة أو لحظات عابرة على عتبة =

ولذا ففى الكثير من الحالات حدث تغير فى النموذج التقليدى للثواب والعقاب حتى عند أولئك الذين تعودوا استخدام هذه التعابير . وذلك عندما وجدوا — بين حيرتهم وذهولهم — أن أفعالهم الخاطئة والقبيحة التى عرضت عليهم (عن طريق استرجاع الماضى) فى حضور ذلك الكائن الضوئى كان رد فعلها عند ذلك الكائن بعيداً عن الغضب أو الثورة عليهم ، بل بالأكثر كان هو التفهم وأحياناً الدعابة ! !

ثم يتساءل المؤلف عما إذا كانت جملة وقائع رؤى المحتضرين يمكن أن تخضع للتحقيق عن طريق الاستماع إلى رواة آخرين غير المحتضرين أنفسهم ؟ ويقول إن الإجابة فى حالات قليلة كانت بالإيجاب ، وذلك عند استجواب بعض الأطباء الذين كانوا يتولون علاج المحتضرين قبل احتضارهم ، ثم يورد بعض نماذج من هذه الحالات [١] .

وبعد صدور هذا الكتاب فى سنة ١٩٧٥ أصدر مودى كتاباً لاحقاً فى نفس الموضوع أعطاه عنوان « أضواء جديدة على حياة بعد حياة » [٢] تناول فيه جوانب جديدة من مشكلات الموت والحياة فى ضوء ما استجد لديه من اختبارات لاحقة مع رؤى المحتضرين . ولكن أكتفى الآن بهذا القدر من أبحاثه ، لكى أتطرق إلى نتائج أبحاث لها وزنها من علماء آخرين ممن أشرت إلى أسمائهم آنفاً .

المبحث الثالث

دور أوزيس وهارالدسون

كلمة عن أوزيس

من أحسن الدراسات التى جرت فى هذا الحقل الجديد من حقول البارا سيكولوجى

= الأبدية ، فلا تصلح أقوالهم للإثبات القاطع كما لا تصلح للنفى البات ، إنما المصدر الأقرب إلى الواقع قد يكون من رسائل الأثير القادمة من أرواح أمضت فيه قروناً ، وربما آماداً بعيدة . وهـذه هى مهمة « علم الروح الحديث » وفلسفته الروحية وليست مهمة جانب أو آخر من أبحاث « رؤى المحتضرين » .

(١) المرجع السابق ص ٩٨ — ١٠٧ .

(٢) New Lights on life After Life (New York 1978) .

— وهو رؤى المحتضرين — دراسة بالغة فى مشقتها قام بها عالمان من أبرز علماء العصر فى البار اسيكولوجى : وهما كارليس أوزيس Karlis Osis، وإرليندور هارالدسون Erlendur Haraldsson .

وكارليس أوزيس من مواليد مدينة ريجا Rega بجمهورية لاتفيا Latvia (إحدى جمهوريات بحر البلطيق) فى سنة ١٩١٧ . وقد حصل على الدكتوراه فى الفلسفة برسالة فى أحد موضوعات « الإدراك عن غير طريق الحواس » E.S.P. تتوقشت بجامعة ميونيخ Munick بألمانيا الغربية فى سنة ١٩٥٠ .

ثم عمل باحثاً بمعامل البار اسيكولوجى التابعة لجامعة ديوك Duke الأمريكية ، وهى من أعرق المعامل فى هذه الأبحاث ومن أكثرها شهرة . وقد غيروا اسمها فيما بعد إلى اسم « مؤسسة البحث فى طبيعة الإنسان[١] » وأصبح أوزيس فيها زميلا للواحد من أبرز الأسماء فى حقل البار اسيكولوجى وهو جوزيف بانكس راين Joseph Banks Rhine أستاذ علم النفس بهذه الجامعة .

ثم أصبح أوزيس مديراً للبحث بمؤسسة « البار اسيكولوجى الأمريكية »[٢] منذ سنة ١٩٦٢ ، وبعدئذ مديراً للبحث « بالجمعية الأمريكية للبحث الروحى »[٣] .

واختير فى وقت ما رئيساً « لجمعية البار اسيكولوجى »[٤] ، ثم أصبح عضواً « بالمجمع العلمى الأمريكى » (الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم)[٥] ، و « بالجمعية النفسية الأمريكية »[٦] ، وهو أيضاً عضو « بالجمعية النفسية الشرقية »[٧] ؛

---

(١) Foundation for Research on Nature of Man.

(٢) Parapsycholgy Foundation.

(٣) American Society for Psychical Research.

(٤) The Parapsychological Association.
وهى غير « مؤسسة البار اسيكولوجى » الآنف الإشارة إليها .

(٥) American Association for the Advancement of Science.

(٦) American Psychological Association.

(٧) Eastern Psyhological Association

و « بجمعية الدراسات العلمية للدين »[١] ، وبعـــدد آخر من الهيئات المعنية بدراسات الظواهر الوساطية ، وبدراسات الشخصية الإنسانية بوجه عام .

وقد ذاع صيته فى بحوث « الإدراك عن غير طريق الحواس » وحاول أن يكشف فيها النقاب عن أسرارها ، وبوجه خاص عن تلك القناة الخفية التى يجرى عن طريقها هذا الإدراك ، والتى تمثل الطاقة الروحية التى لا يزال العلم الوضعى ينقب فيها ، محاولا استكشاف بعض أبعادها الحقيقية .

كما عرف أوزيس ببحوثه المعملية فى اختبارات « الخروج من الجسد العضوى O.O.B.E » مع محاولة إخضاعها لأقيسة فسيولوجية وفيزيائية مبتكرة .

وعنى أوزيس بعد ذلك بإجراء أبحاث شاقة فى « رؤى المحتضرين » أى رؤى « الاقتراب من الموت » على نمط رياضى دقيق اضطره لأن يراجع بنفسه تحقيقات أكثر من ألف حالة منها ، ليستخلص منها عدة نتائج بالغة الأهمية فى تطور البحث الروحى . واضطر بسببها أن يقوم بثلاث رحلات إلى الهند برفقة زميله فى البحث ، حتى يتابع تحقيقات نفس هذه الظاهرة هناك ، وحتى يتمكن من عقد عدة مقارنات هامة بدت له لازمة للوصول إلى نتائج لها وزنها فى هذا الشأن .

كلمة عن هارالدسون

أما إرليندور هارالدسون — شريك أوزيس فى العديد من أبحاثه — ومنها بوجه خاص هذا الكتاب الذى سوف نعرض بعض أجزائه فى الصفحات القادمة، وهو كتاب « فى ساعة الموت »[٢] — فهو من مواليد مدينة ريجافيك Reykjavik بأيسلندا Jceland فى سنة ١٩٣١ . وقد درس البارا سيكولوجى بجامعتى فرايبورج Freiburg وميونيخ بألمانيا الغربية . ووضع هو الآخر رسالته للدكتوراه فى علم النفس فى أحد موضوعات الإدراك عن غير طريق الحواس .

---

(١) Society for Scientific Study of Religion.

(٢) At The Howr of Death. New York. (1977) .

وهو بمقدمة من الدكتورة إليزابث كوبلر روس التى سبق الحديث عنها فى صفحة ٣٥٨—٣٦٠

وعمل هارالدسون فترة من الوقت فى « معهد راين للبار اسيكولوجى »[١] ، ثم أستاذاً لعلم النفس « بجامعة فرجينيا » بمدينة شارلو تسفيل[٢] . ثم أصبح باحثاً فى « الجمعية الأمريكية للبحث الروحى » A.S.P.R. مع زميله كارليس أوزيس حتى سنة ١٩٧٤ . ثم أصبح أستاذاً لعلم النفس بجامعة أيسلندا فى ريجافيك وهى مسقط رأسه .

وهو حالياً عضو « بجمعية البار اسيكولوجى » الأمريكية ، و « بالجمعية النفسية الأمريكية » ، وبجمعية أيسلندا للنفسيين »[٣] . كما هو عضو فى هيئة تحرير « الجريدة الأوربية للبار اسيكولوجى »[٤] .

وقد عنى هارالدسون بوجه خاص بدراسة الصلة بين المتغيرات الفسيولوجية وظواهر الإدراك عن طريق الحواس . وعمل تحقيقات عديدة فى الوساطة الروحية ، وبوجه خاص فيما يتصل بها من ظواهر ذات صلة مباشرة بدوام الحياة بعد الموت ، ومنها رؤى المحتضرين . وذلك سواء فى الولايات المتحدة ، أم فى أيسلندا . وأثناء وجوده فى الهند حقق أيضاً وساطة بعض الهنود من أتباع المذهب اليوجى .

عن كتابهما « فى ساعة الموت »

وهذه الدراسة الإحصائية عنوانها « فى ساعة الموت » ، وهى تعتبر من الناحية العلمية عملا رائداً ، بالغ الأهمية . وذلك لأنها لم تتضمن فقط مجرد سرد لرؤى المحتضرين ، بل تضمنت عدة أبواب هامة مما تثيره هذه الرؤى : منها مثلاً « لغز الموت : بماذا نؤمن إزاء ما نعرف؟ » . و « هل فكرة الحياة اللاحقة للموت تقبل التحقيق ؟ » ، ثم « البحث فى رؤى فراش الموت بين الماضى والحاضر » .

---

(١) Rhine's Institute of Parapsychology ,Durham, North Carolina.

(٢) University of Virginia in Charlotsville.

(٣) Icelandic Association of Psychologists .

(٤) European Journal of Parapsycholgy.

ثم يتناول الكتاب كيف بدأ هذا الموضوع باختبار معين شجع هذين الباحثين على مواصلة البحث فيه. ثم « ماذا يرى المحتضر؟ » ، ثم « نموذج لرؤى فراش الموت ، وكيف اختبرناه » ، ثم « الأطياف : التفوهات برؤى أشخاص كما يرويها المحتضرون الذين ماتوا » .

ثم يتناول الكتاب الخصائص العامة لحالات الأطياف عند المرضى الذين ماتوا » . ثم « البحث عن جذور الرؤية فى الاختبارين رقم ١ ، ٢ » . ثم التحول « من التدهور والألم إلى السلام والسكينة » ، ثم « اختبارات الرؤية عند المحتضرين الذين أمكن إعادتهم إلى الحياة » ، ثم « رؤى لعالم آخر أو للحياة اللاحقة كما تُرى خلال عيون المحتضرين » ، ثم « مغزى الموت : ماذا تعلمنا من هذه الدراسة ؟ » .

وبطبيعة الحال فمن المحال أن يتسع المقام الحالى لعرض كل هذه الموضوعات الحيوية إلا فى تلخيص لبعضها وإيجاز — رغم أهميتها المفرطة للإنسان المثقف العادى ، ناهيك بالدارس المعنى بهذه الدراسات . لذا سوف أكتفى بتلخيص بعض هذه الأبواب خصوصاً منها تلك التى تبدو أولى بالعناية من غيرها .

* * *

إنما قبل أن أبدأ التلخيص يجمل أن أوضح كيف يكون أسلوب التحقيق الرياضى لهذه الظواهر ، وهو يجرى تقريباً بنفس الأسلوب الرياضى المتبع فى تحقيق سائر الظواهر العقلية للوساطة ، لكن المشقة فى ظواهر رؤى المحتضرين أفدح بكثير .

وذلك لأنه يلزم هنا ابتداء إجراء تحقيق على نطاق واسع لاستجواب المحتضر تفصيلياً بعد إفاقته من الاحتضار إذا ما أفاق . ويلى ذلك استجواب جميع أولئك الذين حضروا الاحتضار ، ورأوا بعض حركات المحتضر وسمعوا تفوهاته فى أثناء الاحتضار ، وذلك سواء انتهى الاحتضار بالموت أم بالعودة للحياة[1] .

---

(١) وهؤلاء يكونون عادة من الأقارب ، والأطباء ، وهيئة التمريض ، والزوار أيضاً .

وكل استجواب من هذه الاستجوابات قد يستغرق العشرات من الصفحات . ويجب أن يجرى على منهج علمى يحدد مقدماً عدداً ضخماً من ماهية الأسئلة المطلوب الإجابة عنها .

ويلى ذلك تدوين هذه البيانات — بعد تحليلها إلى جزئيات دقيقة — فى استمارات خاصة معدة مقدماً لإجراء عملية المسح على نطاق واسع .

ويلى ذلك أهم مرحلة ، وهى إخضاع كل البيانات المدونة فى الاستمارات لأسلوب التحليل الرياضى عن طريق تطبيق معادلات الاحتمالات بمعرفة أخصائيين فى هذه المعادلات . وعادة يشترك فى هذه المرحلة مجموعة من الرياضيين يطلق عليهم وصف « المحكمين » أو « لجنة التحكيم » لمحاكمة كل جزئية صغيرة على حدة ، وللتعرف على مدى احتمال وقوعها بطريق الصدفة . وهم يستخدمون الحاسبات الآلية لاستخراج النتائج ، وعمل العدد الكافى من الجداول ، والرسوم البيانية ، والكشوف التوضيحية المتنوعة .

وبعد قطع جميع هذه المراحل يجىء دور علماء الباراسيكولوجى أو دور الباحثين الروحيين فى مراجعة النتائج لإخضاعها لأسلوب التحليل المنطقى — بعد الرياضى — فى ضوء معلوماتهم فى هذه الأمور وذلك لاستخلاص ما قد يعتبرونه بمثابة نتائج ، ثم يرتبون عليها ما قد يرونه منطقياً من الدلالات أو المؤشرات الخاصة . وهذا هو الأسلوب الذى يتبعه الباحثون الجادون الذين سوف أشير إلى بعض أعمالهم فى الصفحات الآتية تباعاً .

عن أهمية هذه الدراسة ومنهجها

وفى الفصل الثانى من هذا الكتاب يسجل المؤلفان أوزيس وهارالدسون مدى انتشار البحث الروحى فى هذا القرن ، وكيف أنه سار فى جدية وفى مثابرة إلى حد أن أزاح الباحثون المتشددون النقاب عن ثروة ضخمة فى هذا المجال . وهى ثروة جاءت عن طريق الملاحظة اليقظة ، والمسح الواقعى للأحداث ، فعززت اعتقاد دوام الحياة بعد الموت وساندته .

وهذه الوقائع الجوهرية وقفت كالسد المنيع فى وجه الافتراضات الهدامة (عن الفناء بالموت) . ثم يسرد المؤلفان بعض الأسماء الرائدة فى هذا المجال ، وبعض المراجع الموثوق فى قيمتها وفى صحة منهجها العلمى [١] .

ويقولان إن اختبارات الاتصال التلقائى بالراحلين واسعة النطاق بشكل يثير الانتباه . ففى دراسة إحصائية قام بها أندرو جريلى Andrew Greeley لحساب جامعة واشنطون فى سنة ١٩٧٣ وجه فيها السؤال الآتى إلى كل من شملتهم هذه الدراسة : وهو « هل شعرت ذات مرة أنك كنت على اتصال بشخص ميت ؟ » ، وكان مجموع من شملتهم الدراسة ١٤٦٧ من الأمريكيين .

وقد أجابت منهم نسبة تبلغ ٢٧٪ بالإيجاب . ونتيجة لذلك ، فإن جريلى يقول إن أكثر من خمسين مليوناً من الأمريكيين قد مروا بهذا الاختبار ، وستة ملايين منهم قد مروا به أكثر من مرة واحدة .

وللمقارنة فقد جرى بحث مماثل فى أيسلندا فاتضح أن نسبة تبلغ ٣١٪ من الناس قررت أنها قد مرت — على نحو أو آخر — باختبار الاتصال بالموتى .

وبحسب بحث جريلى فى سنة ١٩٧٥ فإن نسبة الأرامل من الرجال والنساء الذى شعرت بوجود الزوج الراحل إلى جوارها — مرتين أو أكثر — تبلغ ٥١٪ .

وقام ببحث مماثل و. د. ريز W. D. Rees فقد ذكر أنه سمع من الأرامل من الرجال والنساء بنسبة تقترب إلى ٨١٪ من مجموعهم أن ٤٧٪ منهم قد مروا باختبار الإحساس — فى وقت ما — بوجود الزوج المتوفى . و ٣٩٪ من هؤلاء شعروا بوجودهم ، و ١٤٪ رؤوهم ، و ١٣٪ سمعوهم ، و ١٢٪ تحدثوا إليهم . و ٣٪ ممن جرت مناقشتهم فى هذه الأمور قالوا إن الاتصال قد جرى مع أحد أصهارهم (لا مع أزواجهم) [٢] .

* * *

(١) المرجع السابق ص ١١ — ١٢ .
(٢) المرجع السابق ص ١٤ .

ثم يستطرد المؤلفان فى الفصل الثالث إلى موضوع رؤى المحتضرين بالذات فيقولان إن ثمة عمليات مسح عديدة جرت فى هذا الشأن منها : —

١ — مسح أهلى عام قام به كارليس أوزيس فى سنة ١٩٥٩/١٩٦٠ لحساب « مؤسسة البارا سيكولوجى » [١] ، وهو أول مسح أمريكى جرى فى هذا الشأن .

٢ — مسح آخر قام به أوزيس فى سنة ١٩٦١ إلى ١٩٦٤ فى خمس ولايات : وهى نيويورك ، ونيوجرسى ، وكنتكوت ، ورود أيلاند ، وبنسلفانيا ، وهو ثانى مسح أمريكى .

٣ — مسح ثالث قام به المؤلفان فى الهند فى سنة ١٩٧٢/١٩٧٣ [٢] .

ثم يعرض المؤلفان فى موضع لاحق الصلة الوثيقة التى تربط ظواهر رؤى المحتضرين بظواهر الخروج من الجسد وإلى تعذر الفصل بين هاتين الفئتين من الظواهر فى البحث والدراسة ، مع صلتهما الوثيقة بظواهر « الإدراك عن غير طريق الحواس » .

ثم يعرضان — ببعض التفصيل — الأسلوب العلمى الذى يريانه صحيحاً ولازماً لدراسة ظواهر رؤى المحتضرين دراسة مثمرة ، وذلك فى الفصول من السادس إلى العاشر [٣] . وهذا الأسلوب قد تتفاوت وسائله بالنظر إلى تعدد هذه الظواهر وتنوعها ، وتشابكها ، وتباين ظروفها وأشخاصها أيضاً .

من التدهور والألم إلى السلام والسكينة

ومن أهم النتائج التى وصل إليها المؤلفان أن الاحتضار يمثل فى غالبية الحالات حدثاً سعيداً للمحتضر . فقد وجها سؤالا إلى الأشخاص الذين حضروا ساعة الاحتضار مقتضاه « هل لاحظت حركة مباغتة عند الإنسان المحتضر تشير إلى رغبة التمجيد mood to exaltation (وهى تشير إلى الإحساس بالفرح للتحرر من الألم) ؟ [٤] .

---

(١) Parasychology Foundation.

(٢) وذلك لمقد بعض المقارنات مع نتائج المسح فى بلادهما .

(٣) ص ٤٥ — ١١٩ .

(٤) والمقصود هو تمجيد الله تعالى أو أى كائن سماوى للتعبير عن النشوة والسعادة بالانطلاق .

فكان الجواب بالإيجاب فى ٧٥٣ حالة رواها ١٦٩ شخصاً من مراقبيها . وهى كلها تلتقى عند القول بأنه فى حالات الاحتضار التى انتهت بالموت ارتفع صوت هذا التمجيد على صوت الأنين أو الخوف من الموت . وكان الوصف المتواتر على لسان المراقبين من الأطباء « إنهم يشرقون عالياً they light up » .

لكن لماذا يحدث هذا رغم أن غالبية الناس لا تشعر بانفعالات سارة عند إحساسها بدنو الأجل ؟ لذا فإن هذا التغير المباغت إلى الإحساس بالفرح « يهمنا أيضاً فى افتراض دوام الحياة بعد الموت ، لأن هذا الإحساس المباغت بالفرح فى المرحلة التى تنتهى بالموت لابد أن يجىء بسبب تنبه المحتضر عن غير طريق الحواس (العضوية) إلى قرب دخوله فى وجود لاحق للموت »[1] .

* * *

ثم يقولان إنهما ناقشا الشهود فى ١٧٤ حالة من هذه الحالات (منها ١٠٦ حالة فى الولايات المتحدة و ٦٨ حالة فى الهند) وشيدا تحليلهما على هذه الحالات ، ولو أنه مما يجدر ذكره أن هذه الحالات فى الأولى أكبر منها نسبياً عنها فى الثانية .

وكما يجرى فى حالات رؤى المحتضرين ، فإن غالبية « حالات التمجيد » هذه حدثت قبيل الموت ببرهة يسيرة . فإن ٤١٪ من المرضى توفوا فى خلال عشر دقائق من « التمجيد » الذى صدر منهم ، وأكثر من نصفهم ماتوا فى خلال ساعة واحدة من بعد تحولهم المباغت إلى حالة من السكينة والسلام .

وفى الولايات المتحدة وفى الهند فإن هذا التحول يبدو مستقلا عن أعمار المرضى . رغم أن الأشخاص الذين تجاوزوا الخمسين من أعمارهم يمثلون غالبية هذه الفئة من المحتضرين (حوالى ٦٠٪) إلا أنه بالنسبة للباقين نجد من بينهم فئات من جميع الأعمار

---

(١) نفس المرجع ص ١٢٠ .

لكن فى الولايات المتحدة نجد أن عمر الحادى والستين يمثل العمر النموذجى لهذه الظاهرة ، حين أنه فى الهند يكون هذا العمر النموذجى هو الثامن والأربعون ، وهذا يعكس انخفاض متوسط العمر فى الهند (بالمقارنة مع الولايات المتحدة) .

وأكثر من ذلك فإن جنس المريض المحتضر (من ناحية الذكورة أو الأنوثة) لا أثر له فى هذه الظاهرة بالنسبة للولايات المتحدة . أما فى الهند فإن هذه الظاهرة تحدث للنساء أقل مما تحدث للرجال . وهذا الفارق ينبغى أن يعزى إلى أن وفيات النساء فى المستشفيات أقل من وفيات الرجال ، وذلك لعدم الاهتمام هناك بمعالجة النساء فى المستشفيات .

وفى النماذج التى عرضت « علينا » وجدنا أن معظم حالات المرضى (٨٠٪ منهم) كان وعيهم واضحاً ، وكانوا مدركين تماماً لما يحيط بهم . وبين ١٧٤ مريضاً فإن ٢٧ منهم كانوا يجدون صعوبة فى التخاطب مع من حولهم ، و٧٪ لم يكن بمقدورهم الإجابة على الأسئلة التى كانت توجه إليهم ، أو أن يتفهموها . وكان ٤٪ منهم فقط من المصابين بأمراض فى المخ أو بتسمم من احتباس البول .

وأكثر من ذلك فإن ٨٥ ٪ من أولئك المرضى لم يكونوا مصابين بأمراض قديمة أو معاصرة للموت يمكنها أن تفسر تلك الحركة المباغتة (من الإحساس بالسلام وبالسكينة) التى بدرت منهم قبل الموت ، والتى حدثت فى حالات كثيرة فى لحظة ألم حاد وتوتر .

وحوالى نصف هؤلاء لم تكن تقدم لهم أية عقاقير مسكنة مما قد يعزى إليها تسكين الألم . وفقط فى حوالى ١١٪ من الحالات التى روى فيها المرضى بيانات واضحة كانوا واقعين تحت تأثير هذه المسكنات بصورة تتفاوت بين الاعتدال وعدمه . و ٣٪ منهم فقط كانت حرارتهم مرتفعة (١٠٤ درجة بمقياس فهرنهيت أو أكثر) .

وفى الجملة فإن غالبية هؤلاء المرضى كانت واعية تماماً وليست واقعة تحت تأثير ارتفاع فى درجة الحرارة ، أو تحت تأثير مسكن ما للألم . ولم تكن شكواهم من أمراض فى المخ ، أو نحوها من الأمراض التى يكون من شأنها أن تسبب تفوهاً

أو هذاء . وهذا كله لا يتفق مع افتراض أن حالة المريض الصحية ، قد تكون هى السبب الأول فى التنبه المباغت إلى السعادة .

ثم يبين المؤلفان — بالأسلوب الإحصائى — أن هذه الظاهرة مستقلة تماماً عن أى انتماء دينى ، أو عن التعلق الشديد بالدين أو عدم التعلق به ، أو عن إيمان المريض بوجود حياة تالية أو عدم إيمانه بذلك ، أو عن مستوى ثقافة المريض . فيستوى فى هذا الشأن الإنسان المثقف مع الأمى . . . وتستوى فى ذلك النسب المئوية الخاصة بالولايات المتحدة مع نظيرتها الخاصة بالهند .

وفى جميع الحالات لم يتحدث المريض عن آلامه أبداً فى أثناء إحساسه بنشوة السعادة المباغتة التى شعر بها . بل كل ما لوحظ عليهم هو تحول مباغت غير مألوف فى تعبيرات الوجه كان له أثره القوى فى ذاكرة الممرضات .

طائفة من الأرقام

ومن بين الإحصائيات الكثيرة ، والجداول ، والرسوم البيانية ، التى بها يزخر هذا المرجع المدقق ، نورد هنا طائفة من الأرقام حتى تكون تحت بصر القارىء :

فمنها أنه بين ١٢٠ شخصاً مريضاً وصلوا إلى حالات الاقتراب من الموت تمكن ٤٧ منهم أن يتذكروا رؤى معينة بعد أن أعيدوا إلى الحياة بوسائل الإنعاش الحديثة . وتمكن ٤٣ شخصاً من تذكر رؤى عن مشاهد متصلة بالحياة اللاحقة للموت [٢] .

— وبعض المرضى المحتضرين تمكنت أساليب الطب الحديثة من إعادتهم للحياة ، والبعض الآخر فشلت فى إعادتهم ، لكنهم ماتوا بعد أن سردوا — وهم يحتضرون — اختبارات معينة من هذه الرؤى ، فهل كانت رؤى الطائفتين متطابقة تماماً ؟

وعلى هذا التساؤل يجيب المؤلفان بأنها كانت فى حالات كثيرة متشابهة ، وليست متطابقة تماماً من جميع الوجوه . ويقولان فى موضع لاحق إنهما عقدا مقارنة بين

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٢ — ١٢٥ .
(٢) المرجع المشار إليه عاليه ص ١٤٦ .

الحالات التى كانت الرؤية فيها واضحة من ناحية هدفها ، فتبين أن أولئك المحتضرين الذين أعيدوا إلى الحياة بعد أن شاهدوا رؤى متصلة بالعالم الآخر تبلغ نسبتهم نفس النسبة العادية وهى ٧٨ ٪ . أما أولئك الذين لم تتمكن وسائل الإنعاش من إعادتهم إلى الحياة ورحلوا من هذا العالم فتبلغ نسبتهم ٧٧٪ (أى بفارق طفيف)[١] .

كما يقولان إن الرؤية كانت مختلفة بين الطائفتين من زاوية واحدة : وهى أنه فى حالات النجاح فى إعادة المحتضرين إلى الحياة تمكن ٧٣ محتضراً من سرد معلومات غير غامضة عن هدف الرؤية التى رؤوها . ونسبة تبلغ ٧٨٪ منهم ذكرت أن الهدف من الرؤية كان هو إعادتهم إلى الحياة . وثلث هؤلاء تلقوا — فى عبارات لا يعوزها التصميم — الرغبة فى أن يعودوا ثانية إلى الحياة[٢] . أما فى الحالات الباقية منها فإن المحتضرين لم يتلقوا اعتراضاً صريحاً على رحيلهم أو على تأجيل هذا الرحيل[٣] .

ثم يعقد المؤلفان مقارنات أخرى على نطاق واسع بين رؤى المحتضرين من الأمريكيين ونظرائهم من المحتضرين فى الهند . والهدف من عقد هذه المقارنات هو التعرف عما إذا كانت هذه الرؤى نابعة عن الاختبارات الشخصية للمحتضر ، وعما قد يجول بوعيه من مشاعر ومعتقدات ، أم أنها رؤى محض موضوعية مستقلة تماماً عن هذه وتلك .

ويجزم الباحثان بأن غالبية المحتضرين الهندوس سردت أوصافاً لرؤاها مشابهة فى جوهرها لتلك الرؤى التى وردت على لسان الأمريكيين ، رغم تباين المعتقدات بين هؤلاء وأولئك . هذا وإن كانت معتقدات الهنود عن « الكارما » (قانون الجزاء من جنس العمل) وعن الأفعال الخيرة والشريرة ، قد أعطت صبغة خاصة — فيما يبدو — لبعض هذه الرؤى[٤] .

---

(١) وقد رحل هؤلاء الأخيرون بعد أن أخذوا يتحدثون عن رؤاهم لجالسين معهم فى الغرفة .
(٢) وذلك من أحد « الأطياف » التى رؤوها فى أثناء الاحتضار .
(٣) المرجع السابق ص ١٤٨ — ١٤٩ .
(٤) المرجع السابق ص ١٥٢ .

عن « جذور الرؤية »

ثم يتحدث الباحثان عن « جذور الرؤية فى الحالات التى أعيد فيها المحتضرون إلى الحياة » ، فيقولان إن هذه الرؤى لا ينبغى أن تؤخذ بمعناها الحرفى . وأن نسبة الرؤى عن الحياة اللاحقة (عند رؤية بعض الأشخاص الراحلين أو بعض الرؤى الدينية) كانت متماثلة عند هؤلاء مع طائفة أولئك الذين رحلوا بالفعل بعد أن سردوا رؤاهم .

ولكن فى ثلث حالات المحتضرين الذين عادوا إلى الحياة ، رأى المحتضرون صراحة ما يفيد ضرورة عودتهم إلى هذه الحياة الدنيا ، وذلك بمثل هذه العبارات : « لا يزال أمامك عمل لكى تؤديه » ، أو بمثل عبارة « إن أجلك لم يحل بعد ، وسأحضر إليك فيما بعد » .

وكانت ردود الفعل عند المحتضرين متماثلة تقريباً عند الطائفتين . فثلث المحتضرين كانوا يرفضون أن يذهبوا (أى أن يعودوا إلى الحياة الدنيا) ، وأكثر من النصف (٥٤٪) كان لديهم شعور بالاطمئنان أو بالانشراح ، و ٢٩٪ منهم كان شعورهم سلبياً . و ٢٤٪ منهم كانت ردود فعلهم بمشاعر دينية . ومن طائفة المحتضرين الذين أعيدو إلى الحياة تحدث الثلثان فحسب عن أطياف رؤوها ، أما إدراكهم لبيئتهم الراهنة فقد ظل على ما هو عليه .

وفى الجملة فإن الظواهر كانت متشابهة عند نفس النموذجين من المحتضرين . وعندما كنا نقوم بمناقشة المحتضرين كان لدينا اعتقاد بأنه لابد أن يكون لدى المحتضرين الذين أعيدوا إلى الحياة نسبة من التفوهات المألوفة تتجاوز نسبتها عند أولئك الذين انتهت أمراضهم بالموت ، لكن التحاليل الرياضية لم تؤيد هذا الانطباع ، فيما عدا هذا الاستثناء .

وهذا الانطباع مقتضاه أن رؤى أولئك الذين شفوا من أمراضهم كانت غالباً أطول فى المدة من رؤى أولئك الذين توفوا . فأكثر من النصف (٥٤٪) من المحتضرين الذين أعيدوا إلى الحياة استمروا يتفوهون بالرؤية لمدة تتجاوز خمس عشرة دقيقة ،

أما بالنسبة لأولئك الذين توفوا (بعد الرؤية) فإن ثلثهم فقط استمر يتفوه على هـذا النحو (٣٤٪) .

ثم يقول هذان الباحثان إن نسبة رؤى الأطياف المنسوبة إلى العالم التالى (ومثلها المناظر الدينية) فى الولايات المتحدة بلغت ٧٦ ٪ ، حين بلغت فى الهند ٨٤٪ .

وفى الولايات المتحدة كانت نسبة رؤية أطياف الموتى (من معارف المحتضرين الذين أعيدوا إلى الحياة) ضعف نسبة رؤية رؤى أخرى لها طابع دينى . أما بالنسبة للمحتضرين من الهنود فإن الوضع كان عكسياً (أى بنسبة النصف بدلا من الضعف) .

كما يقولان إن الموضوع الأساسى فى عملية المسح التى جرت أشار إلى وجود حياة تالية بالنسبة للحالات التى انتهت بموت أصحابها . ولقد رأوا أطيافاً عبَّرت عن رغبتها فى اصطحابهم بعيداً فى حوالى ٨٠٪ من الحالات ، فيما عدا حالات فردية من الرؤية الغامضة .

وتبلغ نسبة هؤلاء الأفراد من الأمريكيين ٧٢٪ أما عند الهنود فهى تصل إلى ٨٠٪

وفى هذا الشأن نجد أن نوع الرؤية عند الأمريكيين كان مماثلا لنوعها بشكل جلى عند الهنود ، بصرف النظر عما إذا كانوا قد توفوا أم قد شفوا .

وفى البلدين معاً قام ثلث هذه الأطياف التى جاءت بهدف اصطحاب المحتضرين بمهمتهم إلى حدمعين ، وعندئذ طلبوا من المحتضرين أن يرجعوا ثانية (إلى حياتهم الدنيا) عندما تبينوا أن أوان الرحيل لم يحلّ بعد بالنسبة لهم .

ويقول الباحثان أيضاً إن مدى التأثير الذى تحدثه ثقافة المحتضر على « اختبارات الرؤية » يبدو متماثلا سواء عند انتهاء الرؤية بالعودة إلى الحياة أم بالموت . وهـذا التماثل يدعم الدراسات الأخرى التى ركزت البحث على الحالات التى أعيد فيها المحتضرون إلى الحياة (ببعض وسائل الإنعاش الحديثة) .

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٧ .

ويحيل المؤلفان فى هذا الشأن إلى تلك الدراسات التى قامت بها إليزابث كوبلر روس (١٩٧٦)، ومثلها ريموند مودى (١٩٧٥). ثم يقولان «إننا» تلقينا بيانات عن مرضانا المحتضرين الذين توفوا أوضح بكثير من تلك البيانات التى تلقيناها من عملية «مسح الرؤية» التى تمت بالنسبة لمرضانا الذين أعيدوا إلى الحياة.

ومن ثم «فإننا» نقترح فى المستقبل ألا يهمل البحث حالات المحتضرين التى لم تنته بالموت، والذين يتحدثون عن بعض ومضات من العالم الآخر، لأن ثمة تساؤلات كثيرة تنتمى إلى هذه الفئة الهامة من المحتضرين لم تتم الإجابة الواضحة عنها بعد [١].

عن ماهية «الرؤية» ومدتها

ثم يقول الباحثان إن «دراستنا» تظهر أن المرضى المحتضرين يتحدثون عن رؤية أطياف بمعدل خمسة أضعاف ما يتحدثون عن رؤية مناظر بيئية أو أشياء متنوعة. أما أولئك الذين يتعاطون عقاقير مخدرة فهم يتحدثون عن رؤيتهم أشخاصاً وأماكن أكثر مما يتحدثون عادة عن رؤية أطياف.

فقد ظهر أن ٧٠٣ محتضراً رؤا رؤى مختلفة، ومنهم من اقتربوا من الموت ولم يموتوا، ومنهم من ماتوا بالفعل. ومن هؤلاء قرر ٥٩١ محتضراً أنهم رأوا أشخاصاً، أما رؤية الأماكن والأشياء فلم تكن سائدة إلا عند ١٦٪ فقط منهم.

وفى تعليل ذلك يقول الباحثان إن رؤية الأطياف قد يكون وقعها فى نفوس المحتضرين أقوى من رؤية الأماكن والأشياء، ولذا يسهل عليهم تذكرها، أما رؤية هذه الأخيرة فيمكن بسهولة إغفالها أو نسيانها. وبالإضافة إلى ذلك فمن الجائز أن يتردد المرضى المحتضرون فى الحديث عن مناظر تنتمى إلى عالم آخر خشية السخرية منهم، وهو ما لا يحدث لهم عند الحديث عن زيارة لهم من «العم جون» (كناية عن أى شخص مثل قولنا بالعربية زيد أو عمر)...

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٨ — ١٥٩.

ثم يقولان : دعونا الآن نلقى نظرة إلى حالات الرؤية نفسها . فلدينا ٦٤ حالة لأمريكيين و ٤٨ حالة لهنود ، ونجد أن ثلثى الحالات (٦٩)جاءت من مرضى ماتوا فعلا ، وثلث الحالات (٤٣) جاءت من مرضى لم يموتوا (أى أمكن إنعاشهم) .

وكما هو الشأن فى حالات « الإدراك عن طريق الحواس » كانت الرؤى قصيرة . ففى ٥٢٪ منها استمرت الرؤية لفترة تتراوح بين ثوان معدودة وبين خمس دقائق . وثلاثة أرباعها (٧٥٪ منها) استمرت لمدة تتجاوز خمس عشرة دقيقة ، و ١٦ ٪ منها استمرت لمدة تتجاوز الساعة . فمن زاوية مدة الرؤية نقول إن ٢٥ ٪ من الحالات لا تماثل اختبارات الإدراك عن غير طريق الحواس ، و٧٥٪ منها تماثل حالات هذا الإدراك عن غير طريق الحواس .

ماذا رأى هؤلاء ؟ وماذا كان الموضوع الرئيسى لرؤاهم ؟ إن ٢/٣ منهم فيما يبدو صوروا عالماً آخر ، و ٣٢٪ منهم رأوا أماكن وأشياء فى ذلك العالم . . . ومن بينها رؤية خضرة ، أو زهور نامية ، أو حدائق ، أو بوابات مفتوحة ، أو أضواء ، أو ألوان زاهية .

وأحياناً كانت هذه الرؤى مصحوبة بأصوات تطمئن أصحابها أو تدعوهم لمصاحبتهم ، مع الإحساس بالسلام وبالراحة ، وبدون أية مخاوف أو هموم . . .

ثم يقولان إن من بين مائة حالة من حالات الرؤية توجد نسبة ٣٢٪ عبارة عن تفوهات خاصة بأماكن وبأشياء فى ذلك العالم . بينما توجد نسبة تعادل الثلثين كانت مشغولة بأمور أخرى دنيوية. والصور السماوية السعيدة كانت أكثرها شيوعاً لأنها تعادل ٤١ ٪ .

وصور الحدائق ، والمروج ذات الألوان الكثيفة ،والأضواء الجميلة، وغير ذلك من أوجه الجمال ، وردت على لسان ١٦٪ من الحالات . أما الصور الرمزية عن المبانى الجميلة فقد وردت على لسان ٥٪ منهم فقط .

وفى ذلك تختلف رؤى المحتضرين عن رؤى المرضى بعقولهم، فإن هؤلاء الأخيرين

يسمعون أصواتاً أكثر مما يشاهدون مشاهد . كذلك ورد على لسان ٦٪ من المحتضرين سماعهم موسيقى أو أناشيد سماوية . وهنا نجد أيضاً تماثلا بين انطباعات « الإدراك عن طريق الحواس » وبين رؤى المحتضرين ، لأن هذه الانطباعات وتلك يغلب فيها طابع الرؤية على الاستماع [١] .

هل تشير هذه الرؤى إلى وجود عالم آخر ؟

ثم يتعرض الباحثان لأهم نقطة يثيرها الذهن هنا : وهى التساؤل عما إذا كانت هذه المشاهد كلها تشير حقاً أم لا تشير إلى وجود عالم آخر ينعم فيه الآدميون فى حياة لاحقة ؟ .

وبعد تحليل دقيق هادىء لجميع الفروض المطروحة : بما فيها فروض تأثير الذكريات العادية ، والعقل الباطن ، والأمراض التى تصيب المخ ، مستخدمين دائماً نفس الأسلوب الإحصائى يعرضان للإجابة عن هذا التساؤل الهام . وفى هـذا الشأن يقولان إن « أبحاثنا تشير إلى أن خصائص رؤية البيئة (المحيطة بالمحتضرين) يمكن إلى حد بعيد أن تكون مستقلة عن الظروف الصحية ، حتى وإن أمكن فى حالات أمراض المخ أن تجىء الرؤى بسبب هذه الأمراض » .

كما يقولان إن جنس المحتضر (من ناحية الذكورة أو الأنوثة) لا تأثير له فى تشكيل الخصائص فى ظواهر الرؤية ، حتى وإن وجد بين الجنسين فارق محدود ، فالنساء المحتضرات يشاهدن عادة مناظر خارجية تنتمى إلى عالم آخر مع ما قد يحيط بها ، أكثر مما قد يشاهد الرجال ، أما عمر الرائى فلا يتدخل أبداً فى أية خاصية من هذه الخصائص .

وللتعليم دوره فى هذه الرؤى : فالمرضى ذوو المؤهلات العالية شاهدوا مناظر خارجية تنتمى إلى عالم آخر بنسب ٨٩ ٪ أما الأقل منهم تعليماً فقد بلغت نسبتهم ٥٧ ٪ والمرضى الذين لم يتجاوزوا مرحلة التعليم الثانوى بلغت نسبتهم ٦١٪ .

---

(١) نفس المرجع ص ١٦٠ — ١٧٠ .

وليس « لدينا » أى تفسير نقدمه لتعليل هذا التفاوت [١] .

ولم يكن لتفاوت التعلق بالاهتمامات الدينية أى أثر فى خصائص هذه الرؤى بالمرة ، فالكل قد رأوا نفس هذه المشاهد [٢] .

مغزى الموت : هو ما تعلمناه

وفى الفصل الأخير من مؤلفهما يقول الباحثان إنهما بعد أن درسا حالات الرؤية عند أكثر من ألف محتضر فى قارتين [٣] ، جرى إخضاع هذه الحالات — كما رواها مباشرة الأطباء المعالجون والممرضات — للمنهج الإحصائى الذى قاما بتطبيقه عليها .

والمنهج الإحصائى لا يمثل سوى محض عمل تجريدى لهذه الاختبارات بكل ما انطوت عليه عند حاضريها من آلام مبرحة ، ومن آمال مضطربة ، وهى مشاعر مشاهدة الاحتضار فى ذاتها ، ثم انطلاق مباغت لرؤية مفرحة حقيقية مرت بأصحابها . وكالزهور الجافة فإن الإحصاءات لا تمثل إلا تصويراً باهتاً للحقيقة .

« ومع ذلك فإن المسح الإحصائى — الذى جرى على أعداد ضخمة لاختبارات مر بها مرضى ذوو أمراض متنوعة ، واتجاهات وثقافات موروثة ، ومعتقدات متباينة قد « ساعدنا » فى أن نحصل على نظرة جديدة وعميقة إلى لغز الموت ومغزاه . وهذه المعرفة الجديدة ما كان بمقدورنا أن نحصل عليها عن أى طريق آخر .

وقد كانت سياحتنا الإحصائية هى الأولى من نوعها ، وبالتالى كانت استكشافاً إجمالياً لإقليم مجهول . . . ولذا فإننا نأمل أن يكون مفهوماً أن المعرفة التى جئنا بها تمثل مجرد اقتراب إجمالى لما سوف يتبعه عندما يقبل المستكشفون اللاحقون ،

---

(١) نفس المرجع ص ١٧١ — ١٧٤ .

(٢) يلاحظ فى نفس الوقت أن هذا التفاوت غير جسيم وقد يرجع لاعتبارات أخرى غير اعتبارات التعليم المدرسى مثل تفاوت التطور ، ومدى النضج الروحى ، والثقافة العامة بين المحتضرين .

(٣) هما أمريكا والهنـــد .

وعندما يطبقون أساليبهم بذكاء أوفر ، وبصرامة أشد ، ويجدون مصادر للبحث أجدى من تلك التى أتيحت لنا » . . .

* * *

ثم يضع الباحثان السؤال الآتى وهو : ما هى الخصائص الأساسية لرؤى الاحتضار؟ ويجيبان عليه بأن هذه الظواهر ترشح للقول بوجود لاحق للموت . . . وطبقاً لما نفترضه من دوام الحياة بعد الموت فإن ظواهر رؤى المحتضرين تتضمن صوراً من الإدراك عن غير طريق الحواس لحالات من الحياة اللاحقة ، ولمبعوثى هذه الحياة . ولذا توقعنا أن تكون هذه الرؤى قصيرة المدى . وفعلا كانت كذلك .

وعندما تحدث اختبارات ما بعد الحياة فإن الموت يقترب أسرع مما يحدث عندما تكون هذه الظواهر مرتبطة باهتمامات الحياة الدنيا . وبحسب ما نفترضه من دوام الحياة بعد الموت تكون هذه الظواهر بمثابة نتاج هذا الرحيل إليها ، وينبغى أن يكون النتاج مصاحباً الرحيل .

لقد عثرنا على عدد لا يستهان به من الحالات التى كانت وفاة المرضى فيها متوائمة مع النداء الذى سمعوه فى الرؤيا من الطيف ، حتى عندما كان توقع الأطباء المعالجين هو شفاء المريض . وبطبيعة الحال فإن الفترة بين اختبار الرؤية وبين الوفاة لا ينطبق على تلك الحالات التى لم تحدث فيها وفاة للمريض ، بعد رؤيته لأحد الأطياف أو الرؤى التى تكشف عن بيئة تنتمى إلى عالم آخر . .

ففى الولايات المتحدة والهند معاً كانت رؤى المرضى المحتضرين والقريبين من الموت مسودة تماماً (بنسبة أربعة إلى واحد) برؤية أطياف لأشخاص سبق رحيلهم ، أو لشخصيات دينية . وهذا الكشف مغزاه عال وواضح : وهو أنه عندما يرى المحتضر أطيافاً ، فإنها دائماً تقريباً تظهر كأطياف مبعوثة فى صيغة ما للوجود لاحقة للموت .

وبين الوجوه الإنسانية التى رآها المحتضرون كانت غالبيتهم الساحقة من أقارب

قريبين للمحتضرين سبق رحيلهم . وهذا الاعتبار يتوائم مع افتراضنا بأن الأقارب الأقربين هم الذين ينبغى أن يكونوا بمثابة المرشدين الطبيعيين عند الرحيل إلى حياة لاحقة[١] .

ولقد كانت أساليبنا فى البحث تستهدف إجراء مسح تجميعى ينبغى أن يتضمن التفسيرات الطبية والنفسية ، والأنتروبولوجية (أى تلك التى تنتمى إلى علم الإنسان بوجه عام) .

* * *

وبعد أن يستعرض المؤلفان هذه التفسيرات المتنوعة يقولان إن التقارب الواضح بين خصائص رؤى المحتضرين — مهما تفاوتت التأثيرات الدينية والثقافية بين شعب وآخر — يشير بذاته إلى أن هذه الرؤى لا تنتمى إلى المكونات الثقافية للشعوب بمقدار ما تنتمى إلى رؤى موضوعية مستقلة عن تلك المكونات ، ومرتبطة بوجود حياة لاحقة فى عالم تالٍ لهذا العالم .

ويتخذان أساساً لهذا التقرير الهام عقد عدة مقارنات بين رؤى المحتضرين فى شعبين متباينين فى الثقافة تماماً : وهما الشعب الأمريكى والشعب الهندى . وعقد هذه المقارنات تطلب منهما السفر إلى الهند والإقامة فيها فى ثلاث رحلات طويلة لدراسة ظواهر رؤى المحتضرين هناك بالمقارنة برؤى المحتضرين فى وطنهما .

ثم استعان المؤلفان بالأسلوب الإحصائى فى عقد هذه المقارنات وتوضيح نتائجها ببعض البيانات والجداول المدروسة . والتفصيلات عديدة لا يتسع لها المقام الحالى ، وقد لا يتفهمها تماماً سوى دارسى ظواهر « الإدراك عن غير طريق الحواس » والمعنيين بمغزاها ، وأساليبها الرياضية الحديثة . وهذه تتطلب توافر أرضية صلبة من الإلمام الرياضى ومن الإتقان الفنى فى مجال غريب تماماً على أذهاننا حتى الآن .

ولذا نجد فى هذا الكتاب العديد من الجداول الإحصائية المدروسة بعناية ، والتى

---

(١) نفس المرجع ص ١٨٣ — ٢٠٤ .

يعتقد المؤلفان أنها قدحسمت بشكل بات وقاطع أخطر نقطة فى هذه الاختبارات ، وهى أنها تمثل رؤى موضوعية لا شخصية ، وبالتالى قد حسمت موضوع دوام الحياة بعد الموت ، وببعض ما يرتبط بهذا الموضوع من قضايا عديدة أثيرت فيه ، وما تزال مثارة .

المبحث الرابع

دور جروف وهاليفاكس

كلمة عن المؤلفين

قام بأبحاب حديثة فى هذا الحقل أيضاً عالمان آخران هما الدكتور ستانيسلاف جروف Stanislav Grof ، والدكتورة جون هاليفاكس Joan Halifax .

والأول ظل يعمل فى حقل دراسة الأثر النفسى لبعض العقاقير المخدرة psychedelic drugs وحالات الوعى الإنسانى المتغير (ولبعضها وثيق صلة ببعض حالات المس والاستحواذ)[٢] . وذلك فى معهد للتحليل النفسى بمدينة براج Prague . ثم عمل منذ سنة ١٩٦٧ « بمركز ماريلاند للتحليل النفسى » بمدينة بالتيمور[٣] ، ثم أصبح أستاذاً للتحليل النفسى بجامعة جون هوبكنز Johns Hopkins ، ثم « بمعهد إيزالن »[٤] للبحوث النفسية بولاية كاليفورينا .

أما الثانية فهى عالمة متخصصة فى الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) وفى التحليل النفسى . وعملت فترة من الوقت بجامعة كولومبيا Columbia الأمريكية ، وفى

---

(١) للمزيد راجع الصفحات الآتية : من مؤلفهما الآنف الإشارة إليه ص ٦٠ – ٧٨ ، ١٠٦ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢١٦ – ٢٣١ .

(٢) راجع ما سبق فى هذا الشان فى ص ٢٨٩ – ٣٢٧ .

(٣) Maryland Research Center.

Esalen Institute, California.

« متحف الإنسان » بباريس ، وفى كلية الطب بجامعة ميامى Miami . كما عملت فى « مركز ماريلاند للتحليل النفسى » بمدينة بالتيمور ، أسوة بشريكها فى البحث ستانيسلاف جروف .

وقد عرض هذان الباحثان نتيجة أبحاثها فى ظاهرة « رؤى المحتضرين » فى مؤلف لهما عنوانه « مواجهة الإنسان للموت » (١٩٧٧)[١] .

ومما يلفت النظر أنه قامت بتقديم هذا الكتاب الدكتورة أليزابث كوبلر روس Elizabeth K.Ross التى تحدثت عنها فيما سبق ، وهى نفسها التى قدمت كتاب مودى ، وأيضاً كتاب كارليس أوزيس وشريكه فى البحث إ. هارالدسون ، بما يشير إلى المكانة التى ما تزال تحتلها إليزابث روس بوصفها رائدة لها مكانتها البارزة فى هذا المجال الجديد .

عن كتابهما « مواجهة الإنسان للموت »

وهذه الدراسة تعالج جوانب متعددة من مشكلات الاحتضار والموت . منها مثلا « جانب الوجه المتغير للموت » ، و « تاريخ استخدام بعض العقاقير المخدرة لمساعدة المحتضر » ، و « أبعاد الوعى : دراسة بالخرائط للعقل الإنسانى » ، و « مواجهة الإنسان للموت » ، و « التحول فى غيبوبة الموت »[٢] ، و « الوعى عند عتبة الموت » ، و « الرحلة اللاحقة للنفس بين الأسطورة والعلم » ، و « الموت والعودة للميلاد فى تحول دورى » ، و « حوار الحياة والموت » .

ومن هذا البيان يظهر أن هذه الدراسة ليست مقصورة على « رؤى المحتضرين » بل ترمى إلى توسيع رقعة البحث إلى آفاق أخرى لم تعرض لها الأبحاث التى سبق الحديث عنها ، وفيها تركيز خاص على العقل الإنسانى عند تنقله من مرحلة إلى أخرى من مراحل الإدراك الواعى وغير الواعى ، خصوصاً عند تناول عقاقير مخدرة .

---

(١) The Human Encounter With Death.

وقد ظهرت له طبعة أمريكية فى سنة ١٩٧٧ وأخرى بريطانية فى سنة ١٩٧٨ .

(٢) Psychedelic Metamorphosis of Dying.

فقرات من تقديم إليزابث روس

ولا شيء يبرز خطورة موضوع هذا الكتاب وأهمية أهدافه مثل الاطلاع على بعض فقرات من تقديم الدكتورة إليزابث روس — رائدة هذا النوع من البحوث .

فهى تقول فى هذا التقديم إن كل إنسان معنىّ بطب الأمراض النفسية العضوية Psychosomatic Medecine بشتى فروعه ، وكذلك كل أولئك المعنيين بالاستخدام الإكلينيكى للعقاقير المخدرة ينبغى أن يقرأوا هذا الكتاب .

فهذا الكتاب عبارة عن صندوق يعرض البيانات بقدر مايستعرض التاريخ استعراضاً جيداً . . . فهو ينقلك فى رحلة مثيرة إلى « كتاب الموتى » للفراعنة . كما ينقلك إلى اختبارات عقار الهلوسة L.S.D وتطبيقه المحتمل على اختبارات الاقتراب من الموت مجتمعة ، مع حالات الغرق والحوادث من زاوية أوجه النظر المتعددة فى تفسيراتها النظرية لاختبارات الموت الفردية . وهو قد جاء لاحقاً لأوانه فى بيئاتنا المدمنة للمخدرات .

وكما يقرر جروف نفسه أن اختبارات الموت تغطى رقعة عريضة ابتداء من التجريد إلى تعقب التخدير . ومن استعادة الصدمات الإيجابية لذكريات الطفولة ، ووقائع الموت والعودة إلى الميلاد (العودة للتجسد) إلى أشكال أخرى من الوعى السماوى ، أى ذلك الذى يتجاوز نطاق الوعى خلال التجسد الأرضى [١] .

فهذا الكتاب ليس فى حقيقته مجرد تلخيص لموضوع مواجهة الإنسان للموت ، لأنه يتناول قليلا موضوع الاختبارات الطبيعية التى يمر بها المرضى عند وفاتهم . ولأن المؤلف الأول (جروف) إنسان يمثل أوفر قدر من تفهم كيفية استخدام العقاقير المخدرة وتطبيقها وحالات الوعى المتغير ، مع بذل العناية الخاصة لما يحدث فى تلك اللحظة من التغير التى نسميها « موتاً » .

فهو يعالج ظاهرة الألم واتصالها باستخدام عقار الهلوسة L.S.D ، وما يجرى

---

(١) Transcendental forms of Conciousness.

لحالات الانتحار الفاشلة بعد القفز من قنطرة « جولدن جيت » Golden Gate ، وأيضاً يعالج تحول القيم عند الأفراد الذين لمسوا الجانب الآخر للحياة إما عن طريق استخدام العقاقير ، وإما عن طريق المرور بالاختبار التلقائى الكونى بمواجهة الموت مواجهة قريبة .

ومما يجدر ذكره أن من بين ٣٥,٥٤٠ حالة من ملاحظة الموتى فحصها كارليس أوزيس Karlis Osis[1] توجد نسبة مقدارها ١٠ ٪ فقط من الأشخاص المحتضرين يبدو أنها كانت مدركة فى الساعة التى سبقت الموت . وإن من رأيى الخاص أن إصرارنا الجازم بأن المرضى يكونون فى غيبوبة تامة قبيل وفاتهم إصرار لا يخدمهم ، ولا يخدم ذوى قرباهم .

فالمرضى الذين يتناولون بإفراط عقاقير مسكنة فى ساعاتهم الأخيرة كان بمقدورهم أن يختبروا هذه الحالات من النشوة التى تسبق انتقالهم . والتى تنجم عن إحساسهم (لا عن اعتقادهم) بأنهم قد أصبحوا فى حضرة جميلة لكائن آخر ، وأنهم فى حالة من السلام والاطمئنان أكثر مما هم فى مكان ما ، وأنهم فى حالة من السعادة والشمول تسمو على كل خوف من الموت .

* * *

وهذه الرؤية التى يسودها هدوء لا يعرفه البشر نموذجية ، حيث إنها تمثل وجهاً لوجود المحتضر فى حالة من اقتراب قطع الروابط الأرضية مع بعض الأشخاص تمهيداً للارتباط « بالأيدى المرشدة » ، التى سوف تساعدنا جميعنا على الانتقال من هذا المستوى المادى للحياة إلى المستوى التالى له .

ولعله مما يطمئن أولئك الذين فقدوا شخصاً عزيزاً لديهم بانتحاره ، أن يعلموا من أولئك الذين مروا باختبارات الاقتراب من الموت ، أن أحداً لم يواجههم بمشاعر

---

(١) راجع ما سبق عنه فى ص ٣٧٦ .

ولاحظ ضخامة الرقم : وهو خمس وثلاثون ألف وخمسمائة وأربعون حالة لكى تدرك مدى اتساع رقعة هذه الأبحاث الآن ومدى العناية بها الآن .

الإدانة واللوم — التى نحاول أن نفرضها عليهم — بل بالأكثر لقد أيقظوا لديهم الإحساس بالأمل والرجاء فى أن يستمروا أحياء .

فهذا الكتاب — مجتمعاً مع أعمال مودى الرائدة — ما نشر منها وما سوف ينشر منها قريباً — ساعد المتشككين العديدين على أن يعيدوا تقدير مواقفهم ، وأن يثيروا ما يتراءى لهم من تساؤلات بدلا من أن يرفضوا الخوض فى هذا المجال الجديد من البحث فى أسرار الوجود بعد الموت العضوى .

وعلى أولئك أن يساءلوا أنفسهم : لماذا نجد أن الفروق بين روايات أولئك المحتضرين خفيفة إلى هذا الحد ، ولماذا يحدث هذا التكرار لنفس الأهداف والأفكار ، مهما تباينت البلدان والعصور ، والثقافات ، والأديان ؟ ! . . .

عن موضوع هذا الكتـــاب

وفى التمهيد لهذا الكتاب يقول المؤلفان إن تفكيرهما النظرى فى مجال الموت والموتى (قبل الخوض فيه معملياً) قد تأثر بعمق بإنتاج راسل نويز **Russell Noyes** أستاذ التحليل النفسى بجامعة أيوا **Iowa** والذى شد « انتباهنا » إلى ظاهرة اختبارات الاقتراب من الموت ، وما يتصل بها من التشخيص الفردى الاكلينيكى للموت .

فإن عملية المسح التى قام بها نويز — والتى تعلو على التقدير — جعلت بمقدورنا أن ندرك أن التصوير الداخلى للوعى الذى تقدم للأمام بفضل أبحاث تأثير عقـــار الهلوسة **L.S.D.** ممكن تطبيقه على هذا المجال أيضاً . فقد كان ذلك التقدم خطوة هامة نحو الأمام للتطور نحو الوصول إلى فهم أعمق مما كان للمغزى العالمى والجوهرى لاختبار الموت .

وإننا نشعر بالعرفان نحو معهد إيزالن **Easlen Institute** (للدراسات النفسية بكاليفورنيا) لأنه يسر لنا ظروفاً مؤاتية حتى نطور مفاهيمنا وإنتاجنا فى سلسلة من الكتب . ففى أحضان هذا المعهد أصبح بمقدورنا أن ندفع نحو الأمام برنامجاً تجريبياً تعليمياً للأخصائيين .

وإن المئات من المحللين النفسيين للمرضى ولضحايا عقار الهلوسة L.S.D. الذين قاموا فى دورات دراساتهم للعقاقير المخدرة باستكشاف أسرار الموت فى هذا المجال تطوعوا بتقديم اختباراتهم، والمعلومات التى حصلوا عليها خلال سياحاتهم الداخلية.

ولقد « تعلمنا » كثيراً من الأشخاص الذين كانوا يعانون من آلام السرطان، وكانت عليهم المواجهة القريبة للموت البيولوجى، والذين كان إعطاؤهم العقاقير المسكنة للألم بمثابة إعداد مباشر لسياحاتهم الأخيرة (أى لرحيلهم بالموت)، فإن إسهام هؤلاء فى وضع هذا المؤلف يعلو عن التقدير. وبدون هذه المشاركة النبيلة لهؤلاء الأفراد الشجعان — هم وأسرهم — فإنه كان من المحال وضعه.

* * *

وهذا التمهيد أوردته هنا لأنه لا غنى عنه لنفهم موضوع هذا المؤلف. وهو ابتداء دراسة تحول الوعى البشرى عند تناول عقار الهلوسة L.S.D. أو عند إعطاء عقاقير مهدئة للألم لمرضى الأورام الخبيثة فى مراحل مختلفة.

لكن الهدف الأساسى منه كان محاولة استجلاء بعض نواحى الغموض التى ما تزال تحف بموضوع الاحتضار، وتحول الوعى الإنسانى من وضعه المتجسد السابق للموت إلى وضع آخر متحرر من الجسد العضوى تحرراً تاماً أو جزئياً فى أثناء الاحتضار وبعده.

ومما هو جدير بالذكر أن المؤلفين يلاحظان أن أولى الدراسات فى هذا الحقل بدأها عالم جيولوجيا سويسرى من زيوريخ Zurick يدعى ألبرت هيم Albert Heim كان يتردد كثيراً على جبال الألب، وشاهد حالات عديدة من سقوط المتسلقين لهذه الجبال واحتضارهم بسببها. وقال إن بعضهم كان يرى رؤى مختلفة فى أثناء الاحتضار. وأن هذه الرؤى كانت فى ٩٥ ٪ من الحالات متماثلة ولا توجد بينها سوى فروق طفيفة. ويستوى فى ذلك أن يكون السقوط من على قمة جبل، أم بسبب الجليد، أم بسبب شلال ماء، أم بغير ذلك من أسباب.

ففى جميع الحالات لم يكن الاحتضار مؤلماً، أو مدعاة لليأس، أو للأسى،

أو للقلق ، أو لغير ذلك من المشاعر التى قد تشل تفكير الإنسان فى لحظة الخطر الذى قد لا ينهى الحياة فوراً . بل بالعكس قد يكون الخطر مدعاة ليقظة الوعى وللمزيد من التنبه . وقد سجل ألبرت هايم ملحوظاته هذه منذ سنة ١٨٩٢ فى كتاب عنوانه « ملحوظات على السقطات القاتلة »[١] . ولذا فهما يعتبرانه الرائد الأول لمؤلفات « رؤى المحتضرين »[٢] .

صلة الموضوع بتخفيف آلام ما قبيل الاحتضار

وبعد أن يستعرض المؤلفان بعض الأعمال السابقة لهما فى هذا المجال يقولان إن الدوائر المعنية برعاية المرضى بأمراض أليمة وقاسية أصبحت متنبهة تماماً إلى المشكلات المرتبطة بالاحتضار ، وإلى الحاجة إلى إحداث تغييرات بعيدة المدى فى الأسلوب الطبى الشائع بشأن هذا الموضوع .

صحيح إن المقالات والمؤلفات عن الموت وعن معاملة المرضى بأمراض لا برؤ منها تتزايد دواماً . وكذلك المحاضرات ، والأبحاث ، والندوات ، والدروس التى تستهدف إيجاد سبل متطورة وفعالة لمساعدة المحتضرين . وكلها أصبحت تتغلغل فى الأوجه النفسية الخاصة بتسلسل مراحل الاحتضار والموت .

لكن الأبحاث التى جرت على عقار الهلوسة L.S.D ، وغيره من العقاقير المخدرة ، فى غضون الربع القرن الأخير فتحت الباب لإمكانات جديدة لتخفيف الآلام الانفعالية والعضوية عند الأشخاص المحتضرين المصابين بالسرطان وغيره من الأمراض المزمنة . وقدمت اقترابات غير متوقعة نحو فهم أعمق مما كان لاختبارات الاحتضار والموت .

إن الوقائع التلقائية الخاصة بالموت والولادة الجديدة[٣] فى الدوائر المعنية بتأثير

---

(١) وهو بالألمانية ، وله ترجمة انكليزية عنوانها : Remarks on Fatal Falls.

(٢) المرجع السابق ص ١٣١ — ١٣٢ .

(٣) يشير المؤلفان إلى الموت بوصفه ميلاداً جديداً للإنسان فى عالم آخر .

المخدرات — عند الأشخاص العاديين والمرضى نفسياً — جعلت بالمقدور التحقق من أن إمكانات أمثال هذه الاختبارات كامنة فى اللاشعور الإنسانى .

فإمكان استقراء ظواهر الموت والعودة للميلاد تحت ظروف الرقابة وبأسلوب يمكن توقعه نسبياً قد سمحت بعمل تخطيط تفصيلى لهذه الاختبارات . ومهمة هـذا الكتاب هى أن يصف المغزى العملى للعلاج التخديرى للأشخاص المحتضرين ، وأن يناقش أساليب البحث التخديرى ، بما يدفع بها نحو فهم أعمق مما كان لتسلسل مراحل الموت [١] .

* * *

ثم يستطرد المؤلفان إلى نتائج بعض الأبحاث الخاصة بتأثير عقار الهلوسة L.S.D فى الوعى وفى الشعور ، سواء عند الإدمان أم عند التخدير الطبى للمرضى بالأورام الخبيثة . وبعدئذ يعالجان « أبعاد الوعى » مع محاولة رسم صورة للعقل الإنسانى .

وهذه النتائج تفصيلية وتلزم إلى أقصى مدى المحللين النفسيين ، وأيضاً كل أولئك المعنيين بمحاولة تخفيف آلام الإنسان عندما يكون فى أحرج ساعة من حياته ، ولا أقول إنها لحظة الاحتضار نفسها بل تلك اللحظات التى تسبق غالباً غيبوبة الاحتضار .

وهما يخصصان لهذا الجانب الحيوى من البحث الفصول من الثانى إلى السادس [٢] ، ثم ينتقلان فى الفصل السابع إلى تناول موضوع « الوعى عندما يكون على عتبة الموت » . ويوردان أمثلة متنوعة لحالة الوعى فى تلك اللحظة مستمدة من عدة مؤلفات وأبحاث سابقة لهما .

عن التحول نحو الحياة الأسمى

ثم يتناول المؤلفان هذا التحول ومعه موضوع استرجاع المحتضر للذكريات القديمة . ويقولان إن الأشخاص المحتضرين يؤكدون أن هذا الاسترجاع الانفعالى

---

(١) نفس المرجع ص ١١ — ١٢ .
(٢) من صفحة ١٣ — ١٣٠ .

الأخير لذكرياتهم السابقة له مغزى انتقالى (أى مرتبط بالانتقال إلى حياة لاحقة) ، ويجعلونه جزءاً من النظام الكونى الذى يحيط بحياتهم.

وبالمقدور النظر إلى هذا الموضوع بوصفه توكيداً قوياً للتطلعات الروحية التى قد تعتمل فى نفس الإنسان المحتضر . وفى حالات عديدة كانت اختبارات الرؤية عند بعض الأشخاص جميلة إلى حد أن أصبحت لديهم لهفة قوية لأن يموتوا ، وأن يبقوا للأبد فى الممالك التالية (لهذه الحياة) . وكثيراً ما أظهروا شعور النفور أو المقاومة عند إعادتهم إلى الحياة وإيقاظهم إلى الحقائق اليومية .

وفى المعتاد فإن مرحلة هذا التحول إلى الحياة الأسمى transcendence تبدأ بطبيعة الحال من استعراض أحداث الحياة . والأشخاص الذين يسترجعون وجودهم من ناحية الخير والشر يكون بمقدورهم أن ينظروا إلى هذا الموضوع من زاوية متزايدة وبعيدة . وبمقدورهم الوصول إلى نقطة فى الرؤية يمكنهم عن طريقها أن يروا أحداث حياتهم بكل دقائقها وهى تجرى فوراً .

وفى النهاية حتى لو كان هذا القيد (قيد رؤية أحداث حياتهم الأرضية) قد تغلبوا عليه، فإن الأشخاص المحتضرين يبدأون فى المرور بهذا الاختبار الذى يشير إليه المؤلفون بوصفه اختباراً غيبياً mystical ؛ أو سماوياً transcendental ، أو كونياً Cosmic ، أو وعياً دينياً .

وفى بعض الحالات فإن استرجاع المحتضر لذكريات حياته الخاصة لا يحدث ، بل إن الشخص الذى يواجه الموت بغتة يتحرك رأساً إلى الوجه السماوى للحياة[1] . .

وبعد أن يستعرض المؤلفان أهم البيانات التى أوردها ريموند مودى بشأن استرجاع الماضى ، والإحساس بالخروج من الجسد العضوى ، وخصائص الجسد الروحى والكائن الضوئى[2] . . ينتقلان إلى محاولة وضع صورة لسياحة النفس بعد الموت كما تبدو بين الأسطورة والعلم .

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٠ .

(٢) المرجع السابق ١٥٣ — ١٥٧ وراجع ما سبق فى هذا الشأن فى ص ٣٦٣ — ٣٧٢ .

عن مفهوم الحيـــاة التالية

ويقول المؤلفان فى هذا الشأن إن مفهوم الحياة التالية للموت قد ارتدى أشكالا نوعية عديدة فى الثقافات المختلفة ، لكن الفكرة الأساسية الكائنة وراء هذا المفهوم هى نفس الفكرة . ومقتضاها أن الموت لا ينهى الوجود الإنسانى بالكامل ، وأن الحياة أو الوعى سوف يستمر — على نحو أو آخر — بعد ما يفقد الجسد حيويته .

وفى بعض الأحيان تكون صورة الحياة التالية ملموسة وواقعية ولا تختلف عن الوجود الأرضى . لكن فى أحيان أكثر من هذه تكون الحياة التالية ذات مميزات خاصة تميزها عن كل شىء معروف على الأرض . وسواء أكان محل إقامة النفس عبارة عن بيئة مألوفة أم لم تكن كذلك ، فإن سياحة النفس إلى العالم التالى يُعتقد غالباً أنها عبارة عن تسلسل مركب من التنقلات والمتغيرات خلال مستويات وممالك متنوعة .

والدراسات المقارنة — لمفاهيم ما بعد الحياة ، ولرحلات النفس فيها — تكشف عن تشابه يسترعى الانتباه بين الثقافات والمعتقدات حتى تلك المعزول بعضها عن البعض الآخر تاريخياً وجغرافياً . فإن أوجه الشبه بينها فى الدوافع وفى الأفكار يمكن ملاحظتها بسهولة ، حتى وإن كان هناك بعض مغايرات فيما يتعلق بفكرة المقر النهائى للإنسان الفاضل بعد الموت ، سواء كان هذا المقر هو السماء أم الجنة .

وبعدئذ يستعرض المؤلفان جانباً من العقائد والأساطير القديمة والجديدة فى أنحاء عديدة من العالم بشأن موقفها من قضية نوعية الحياة التى تلى الموت[1] . ثم يعالجان موقف علم النفس الحديث من هذه القضية فيقولان ما مقتضاه إن سيجموند فرويد S. Freud عالم النفس الشهير قد غير أفكاره تغيراً جذرياً نتيجة لملاحظاته المعملية (بعد أن كان ينكر خلود النفس) .

وقد صاغ فرويد — بشأن دور غريزة الموت — نظريته النهائية فى آخر إنتاج رئيسى له وهو « شرح التحليل النفسى » (١٩٣٨)[2] وفيه أصبح الصراع الأساسى

---

(١) فى ص ١٨٨ — ٢٠٣ .

(٢) An Outline of Psychoanalysis .

بين طاقتين قويتين — وهما غريزة الحب Eros وغريزة الموت Thanatos — هو حجر الزاوية فى كيفية فهمه لنشاط العقل ، وهو المفهوم الذى ساد تفكير فرويد فى سنى حياته الأخيرة .

وهذه المراجعة الجذرية فى نظرية التحليل النفسى لم تلق حماساً كافياً بين أتباع فرويد ، ولم يتغلغل الاعتقاد بها بعد فى التيار الرئيسى للتحليل النفسى . وقد قام رودلف بران Rudolf Brun بعمل بحث إحصائى موسع فى كل الكتب والمطبوعات المتصلة بفرويد عن نظرية غريزة الموت ، وما قد يرتبط بها من قضايا متنوعة .

ثم يتناول المؤلفان بالشرح والتعليق التحول الضخم الذى جرى بعدئذ على يد عالم النفس كارل جوستاف يونج Carl Gustave Jung (١٨٧٥ — ١٩٦١) فى مؤلفه بعنوان « سيكولوجيا اللاشعور »[١] . والخوض فى هذا التحول يضيق عنه المقام الحالى[٢] ، وقد عرضنا لبعض جوانبه فيما سبق[٣] .

المبحث الخامس

دور أسماء أخرى

عنيت بظواهر « رؤى المحتضرين »

روبرت كروكول

من أبرز الأسماء التى عنيت ببحث ظواهر رؤى المحتضرين فى بريطانيا روبرت كروكول Robert Crookall الذى كان عالماً فى النبات وفى الجيولوجيا ومحاضراً بجامعة أبردين Aberdeen بقدر ما كان معنياً بظواهر الطرح الكوكبى .

---

(١) On the Psychology of the Unconscious.

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٤ — ٢٢١ .

(٣) راجع ما سبق فى ص ١٠٢ — ١٠٣ و ص ٢١١ — ٢٢٣ .

ونظراً لوجود صلة وثيقة بين هذه الظواهر وظواهر رؤى المحتضرين -- كما سبق القول — فقد عُنى كروكول أيضاً بهذه الظواهر الأخيرة ووضع فيها كلها مؤلفاً معدوداً الآن من أقيم المؤلفات فى هذه الظواهر وتلك عنوانه « دراسة الطرح الكوكبى وتطبيقه »[1] .

وفيه يقول هورنل هارت Hornell Hart الأستاذ بجامعة ديوك بأمريكا فى تقديمه للطبعة الأمريكية من هذا الإنتاج بأنه « من أعظم الأعمال التى تمت حتى الآن فى العلم الروحى ، ولعله قال الكلمة الأخيرة فى هذا الموضوع لأمد طويل » .

وفى هذا الكتاب يستعرض المؤلف مائة وستين حالة من حالات الطرح الكوكبى المحوطة بضمانات كافية ، ويحللها تحليلا دقيقاً للخروج منها بدلالاتها المحتومة ونتائجها المنطقية ، بقدر اتصالها بمشكلات الطبيعة الحقيقية للإنسان ، وأيضاً بمشكلات الموت والحياة .

ومن أوائل الحالات الواردة فى هذا الكتاب واحد وعشرون حالة عن أشخاص شعروا بأنهم كانوا خارج أجسادهم العضوية لأنهم « ماتوا تقريباً » . أى بسبب أنهم مروا بمرحلة الاحتضار ثم أعيدت إليهم الحياة باتباع وسائل الإنعاش الحديثة .

ولا يتسع المقام بطبيعة الحال للخوض فى تفصيلات هذه الحالات تفادياً للتكرار ، لأن غالبية هذه الحالات تتوافق — فى العديد من أجزائها — مع تلك التى أوردها باحثون آخرون ومنهم ريموند مودى ، الذى لخصنا نتائج أبحاثه فى موضع سابق ، وأفردنا لها مكاناً كافياً هناك .

فى الحالات التى أوردها كروكول نجد أيضاً حديثاً من المحتضرين عن الإحساس بوجودهم خارج أجسادهم العضوية لفترة من الوقت . أو عن وجود حبل أثيرى أو عدة حبال تربطهم بهذه الأجساد . أو عن أحاسيس شتى بالطفو عالياً فى الغرفة ،

---

(١) The Study And Practice of Astral Projection (New York 1966).

وللمزيد عن كروكول راجع مؤلفنا فى « ظواهر الخروج من الجسد » طبعة ثالثة ١٩٨٤ ص ١٧٦ — ١٨٢ .

أو عن مشاهدتهم أجسادهم العضوية مسجاة على فراش الموت . أو عن رؤيتهم بعض أقاربهم أو معارفهم الذين سبقلهم الرحيل من هذه الديار . كما روى بعضهم سماعهم لقطع موسيقية جميلة ، أو رؤيتهم لبعض مناظر خلوية متنوعة، أو سماعهم لبعض أحاديث صادرة من تلك الكائنات غير المرئية[1] . . .

سابوم وشونماكر

والأسماء المعنية برؤى المحتضرين أصبحت الآن كثيرة . ومن بينها ما لكولم سابوم Malcolm Sabome طبيب أمراض القلب بمستشفى أتلانتا Atlanta ، والدكتور شونماكر Schoonmaker وهو أيضاً أخصائى فى أمراض القلب بمستشفى دينفر Denver بالولايات المتحدة .

وقد سجل هذا الأخير عن ظاهرة « رؤى المحتضرين » الخصائص الخمس المشتركة الآتية وهى : —

أولا : أنها ظاهرة إنسانية شائعة الحدوث ، بمعنى أنها قديمة ، وكانت معروفة فى جميع العصور ، وتبرز نفس الصفات والخصائص رغم تفاوت الأسس الثقافية بين الشعوب تفاوتاً تاماً .

ثانياً : أنها غير إرادية ومستقلة عن أسباب الاحتضار .

ثالثاً : أنها ظاهرة سعيدة رغم قلق شهودها ، الذين لو تحدثوا عنها لقلنا إنهم مجانين (أى يروون وقائع خرافية) .

رابعاً : أنها تؤدى إلى تعديل جذرى فى معتقداتنا عن الموت ، فلا يقول قائل بعد « إننى أؤمن بدوام الحياة بعد الموت » ، بل يقول « إننى أعلم بأننى سأحيا بعد الموت » .

خامساً : أن إدراك المحتضر لبيئته الجديدة عندما ترحب به يبدو واضحاً ، ولا يصح أن يعزى إلى المصادفة .

---

(١) للمزيد راجع كروكول . المرجع السابق ص ٣ — ٢٠ .

واين كارتر

وهكذا أصبحت هذه الأبحاث تتزايد يوماً بعد يوم إلى درجة تلفت النظر ، وإلى أحد أن أصبحت توضع فيها رسائل للحصول على الدكتوراه فى العلوم الطبيعية . ومن تلك الرسائل الحديثة واحدة أعدها باحث يدعى واين كارتر **Wayne Carter** فى علم « الأنثروبولوجيا الاجتماعية » بجامعة أوكلاند **Auckland** وهو من نيوزيلندا .

وهو يقول — استناداً إلى إحصائية قام بها معهد جالوب الأمريكى للإحصاء **Gallup Poll** فى سنة ١٩٨١ — إن ٥ ٪ من الأمريكيين مروا بأحد اختبارات « رؤى المحتضرين » ، وهو ما يعادل فى موطنه الأصلى نيوزيلندا حوالى ١٦٠,٠٠٠ من البشر ! !

وهو يرى أن هذه الاختبارات فردية خالصة ، ويرددها البعض كما لو كانت مجرد « هلوسات » تولدها العقاقير ! ! أو من معالم الاضطراب النفسى ، لكنها لا ينبغى أبداً أن تترك جانباً ، أو أن يوكل أمرها إلى أى إنسان غير ملم بها .

ووجد واين كارتر أن التقارير الأمريكية عن « رؤى المحتضرين » تكشف عن قيام حالة من الإحساس بالسرور وبالغبطة عند المحتضرين . ومن رأيه أن هذه الرؤى ترتبط بالظواهر الخارقة للمألوف عن طريق ظاهرة أخرى وهى « الخروج من الجسد » كما سبق القول .

وفيها يتم شحذ حواس السمع والبصر ، ورفع طاقاتها فيشعر الرائى أنه انفصل عن جسده العضوى ، وأصبح يطفو ويجول من حوله . وقرر العديدون أنهم شعروا بأنهم قد طفوا عالياً إلى مكان آخر يشبه نفقاً طويلا ، أو وادياً ، أو مكاناً فضاء . وصادفوا أحياناً ضوءاً براقاً أو ذهبياً . ومنهم من توقفوا عن الحركة (أى ألزموا أمكنتهم) وعندئذ اكتشفوا وجود حديقة ، أو أرضاً خضراء ، أو وادياً فسيحاً . وكثيراً مايرى الشخص المحتضر قريباً متوفياً من أقاربه جاء لكى يقوده إلى هذا الضوء .

وقرر أحد المحتضرين أنه يذكر أنه دلف إلى غرفة وسمع صوتاً عميقاً مدوياً يقول

له « إن أوانك لم يحلّ بعد يا جاك أليس كذلك » ؟ وبعدئذ توقف الصوت ، وأفاق هذا المحتضر واسترد صحته .

كما قرر شخص آخر يدعى ونج Wong أن اختبارات هذه الرؤية سارة ، والأشخاص الذين أعيدوا إلى الحياة عادوا إلى أجسادهم متضررين من الإعادة . وعندئذ قد يجدون أن بعض نواحى سلوكهم قد تغيرت ، وأن تخوفهم من الموت قد تراجع ، وأن اهتمامهم بالأمور الروحية قد تزايد، ومعه إيمانهم بدوام الحياة بعد الموت . . . وأن الاتزان الذى كان يعوزهم من قبل لم يعد يعوزهم . وكذلك تراجعت لهفتهم على المال ، وما إليه من صور التعلق بالماديات .

وقرر شخص آخر يدعى بيتر Péter أنه أصبح الآن يقدّر أكثر من ذى قبل قيمة الحياة « لقد ذهبت أتجول فى الطريق ، وبدا لى كل شىء جميلا الآن . كنت من قبل أرى كل شىء كما لو كان سهلا ميسراً : الهواء ، والأشجار ، والخضرة . أما الآن فإن نظرتى إلى هذه الأمور قد تغيرت » .

كما يقول واضع الرسالة إن اختبارات « رؤى المحتضرين » لا يمكن تكرارها فى المعامل لكى تخضع للفحص العلمى . وأن من بين مائة شخص اقتربوا من الموت بسبب أزمات قلبية تبين أن واحداً وستين منهم مروا بهذه الاختبارات . . . [١]

دافيد لوريمر

ومن المعنيين بهذه الظواهر أيضاً باحث بريطانى معاصر هو دافيد لوريمر David Lorrimer مدير « الشبكة العلمية والطبية »[٢] هناك . وهو فى نفس الوقت نائب رئيس « الجمعية الدولية لاختبارات الاقتراب من الموت »[٣] .

---

(١) عن جريدة « الأنباء الروحية » Psychic News البريطانية عدد رقم ٢٩٤٥ الصادر فى ١٩ نوفبر سنة ١٩٨٨ صفحة ٤ .

(٢) Scientific and Medical Network.

(٣) International Association of Near Death Experiences.

وهو يقسّم مراحل الاحتضار إلى خمس مراحل أساسية على النحو الآتى (وهو ما يلتئم التئاماً فريداً مع نتائج تحقيقات سائر الباحثين) : —

الأولى : هى مرحلة تراجع الألم ، وامتلاء المحتضر بإحساس السلام .

والثانية : هى مرحلة بدأ الشعور بالانفصال العضوى والانفعالى . وفيها قد يشعر المحتضر أيضاً بالطفو فوق جسده العضوى ، مع رؤية بعض الأحداث التى قد تجرى فى الغرفة .

والثالثة : هى مرحلة الشعور بسياحة سريعة فى نفق مظلم طويل .

والرابعة : هى مرحلة رؤية ضوء ساطع أو كائن ضوئى .

والخامسة : هى مرحلة الدخول فى صميم هذا الضوء تدريجياً ، أما أولئك الذين يدخلون فيه بغتة فقد يجدون أنفسهم وقد أعيدوا ثانية إلى الجسد العضوى.

ولا يمر كل إنسان حتماً بكل هذه المراحل .

وقد يرى البعض مناظر طبيعية جميلة ، كما قد يقابل المحتضر بعض أقاربه من « الموتى » أو كائناً قد يساعده على تقييم حياته[١] .

وطبقاً لإحصاء قام به معهد جالوب Gallup فإن ثمانية ملايين من الأمريكيين قد مروا باختبار واحد بالأقل من اختبارات الاقتراب من الموت[٢] .

مجمل هـــذه التحقيقات

ومجمل هذه التحقيقات كلها فى المقام الأول هو أن استمرار الحياة بعد الموت قد أصبح حقيقة وضعية بمقدور الأساليب الرياضية أن تدرسها وتمحصها . وفى المقام الثانى أن عملية الرحيل إلى هذا العالم التالى هى فى المتوسط العام ليست مؤلمة ولا شاقة . فلا داعى للذعر منها ، ولا للمبالغة فى القلق على الراحلين بشأنها .

---

(١) راجع ما سبق بشان تحقيقات إليزابث روس ص ٣٥٨ ، وريموند مودى ص ٣٦٣ — ٣٧٢ .

(٢) للمزيد راجع جريدة « الأنباء الروحية » Psychic News عدد ٢٦ نوفمبر ١٩٨٨ ص ١ ، ٨ .

بل بالعكس إن حالة الاحتضار — متى وصلت إلى الغيبوبة التامة تكون مقرونة غالباً بنشوة روحية فريدة فى نوعها ، وبأحلام سعيدة . وقد عبّر عن هذه المعانى كتاب عنوانه « الموت : ظواهره وأسبابه » لمؤلفيْن معروفين فى مجال علم الروح الحديث وهما الدكتور هيروارد كارنجتون Hereward Carrington ، وشريكته فى التأليف رجون ميدر Joan Mider .

ومما ورد فيه بهذا الشأن « إن ثمة شواهد عديدة تشير كلها إلى أنه لا يوجد أى ألم فى لحظة الموت ، على عكس ما هو سائد » . ثم ينقلان عن أحد المؤلفين قوله « يعانى الجنين عند الولادة من متاعب لو كان واعياً لشعر بأنها أفظع ألماً من أصعب ميتة ، لكنه لا يشعر بها لأنه يولد فى حالة من فقدان الوعى فلا تصل إلى وعيه أية تأثيرات واعية ، بل يجد نفسه يدلف إلى عالم مجهول عنه وهو تحت تأثير مخدر طبيعى » .

وقد أيد نفس هذا المعنى مؤلف للباحثين هيروارد كارنجتون وسيلفان ملدون S. Muldoon بقولهما « إن غالبية حالات الموت تجرى بلا ريب عندما يكون المحتضر فى حالة غيبوبة . ولذا قرر الدكتور بايلى Bailey أن كل مشاهداته للمحتضرين جعلته يعتقد أن الطبيعة أرادت أن نخرج من هذه الدنيا فى حالة غيبوبة ، مثلما دخلنا إليها » .

ثم يقولان إنه فى لحظة الاحتضار تنقص كمية الدم الذى يذهب إلى المخ ، ويصبح محملا بغاز ثانى أوكسيد الكربون الذى يؤثر بدوره فى المراكز العصبية فيحدث تخدير مركز النخاع الشوكى . ومن ثم يتوقف الإحساس والوعى . . . وحتى لو كانت الحواس ما تزال يقظى حتى النهاية أحياناً ، فإن العقل يصبح عادة هادئاً ومركزاً ، ويصبح الجسم خالياً من الألم »[1] .

ويقول الدكتور أوسلار Osslar « عندى سجلات لحوالى خمسمائة حالة موت على الفراش ومن هؤلاء تسعون شعروا بإدراك عقلى وفزع . وواحد ظهر عليه

---

(١) H. Carrington & S. Muldoon : Projectien of thf Astral Body (New York 1929).

انتعاش روحى ، وواحد ذهب فى نوم عميق . أما الأغلبية العظمى فلم تبدُ أية علامة عليهم . ومثلما ولدوا كان موتهم نوماً ونسياناً »[١] .

* * *

وقد أيدت هذه الحقيقة بعض الرسائل الواردة من عالم الروح ، ونقتطف من بعضها ما يلى : —

— ففى رسالة واردة من راحل يدعى مونسينور Monsignor يقول « يعتبر كثير من الناس المجىء إلى عالم الأرواح ولادة ثانية ، ويحتفلون بعيد الميلاد الثانى بفرح أكثر كثيراً من فرحهم بعيد ميلادهم على الأرض »[٢] .

— وفى رسالة من كاهن فرعونى قديم يدعى « أنورع » نقرأ ما يلى « أول شىء يحدث عند لحظة الموت هو الذهاب فى نوم كالغيبوبة . وفى هذه الحالة « يموت » الشخص كما تسمونه أنتم ويوجه الميت نحو هذا الجانب الآخر من الحياة حيث يترك ليستريح على فراش وثير فيما نسميه نحن غرفة الاستقبال الروحى . وعندئذ يؤتى بأحبائه فيحيطون بالفراش وينتظرون هناك حتى تفيق النفس المنتقلة ، وتعى أنها ماتت كما تقولون . وبعد أن تزول عنها الدهشة أو المفاجأة السعيدة توجه إلى منزلها الروحى الحقيقى مصحوبة بالأحباء والأصدقاء . وكل هذا يستغرق حوالى أربع ساعات من الزمن الأرضى »[٣] .

— وفى رسالة من روح آخر نقرأ ما يلى « ليس للإنسان أن يخشى الموت ، بل هو أروع الأمور قاطبة وأكثرها مدعاة للبهجة من أى حدث آخر يكون قد مرَّ به من قبل ، فلا حاجة بكم لأن تقلقوا من هذه الناحية »[٤] .

* * *

(١ ، ٢) للمزيد راجع على عبد الجليل راضى فى مؤلفه « أنت تحيا بعد الموت » ١٩٨٤ . ج ١ ص ١٦ وما بعدها .

(٣) على عبد الجليل راضى . المرجع ص السابق ٥٣ .

(٤) للمزيد راجع : Neville Randall : Life After Death London 1975 . P. 30 & 69.

وهكذا نرى أن نواحى الخدمة ، والرجاء ، وتبديد القلق والحزن ، التى تتكشف عنها فى كل يوم أبحاث « علم الروح الحديث » أكثر من أن تحصى . وهكذا تسمو دائماً خدمات العلم — فى صمت وأناة — على صراخ المناوئين بنفس المقدار ، حتى عندما يتصدى منهج العلم لتخفيف آلام الإنسان فى رفق وأناة . وذلك فى أخطر مجال تقب فيه المنهج الوضعى حتى الآن ، وهو مجال كشف النقاب عن بعض ألغاز الموت والحياة ، وأسرار التحول والانتقال .

على أن صورة الخدمات التى أداها منهج الباراسيكولوجى للانسانية جمعاء قد تبدو أوفر وضوحاً أمام بصر القارئ الكريم عند التأمل ملياً فى موضوع الفصل المقبل ، وما يتضمنه من التصدى لدرء أقبح خطر قد يتهدد حياة كل إنسان ، وهو خطر دفنه حياً بسبب التسرع فى تشخيص الموت . وهو فى بشاعته أقبح من خطر إزهاق روح إنسانى حى تعمداً فى كل عواقبه وآلامه الرهيبة .

بل إن كل باب من الأبواب المتبقية فى هذا الكتاب كفيل بذاته بأن يجعل صورة منهج الباراسيكولوجى — وما أداه من خدمات جليلة للإنسانية — أوفر وضوحاً مما قد يظهر حتى الآن .

وهذا المعنى قد رددته أكثر من مرة ، ولكنى أشعر فى كل مرة أننى لم أبلغ غايتى بعد من الإيضاح ، لأن الموضوع برمته أوفر عمقاً — واتساعاً وارتفاعاً — مما قد يبدو — لأول وهلة — لنا جميعاً .

فإلى الفصل الثانى من هذا الباب .

الفصل الثانى

عن الخطأ فى تشخيص الموت

تمهيـــد

أدت تحقيقات رؤى المحتضرين على نمط واسع حديث إلى إماطة اللثام عن أسرار عديدة متعلقة بتحول الوعى والذاكرة ، بمقدار ما هى متعلقة بماهية الجسد الروحى أو اللاعضوى للانسان، وصورته، وخصائصه ، وملكاته، وسلوكه ، ومصيره ، وصلاته بالعالم المادى ، وبالعالم التالى الذى يقع فيما وراء المادة .

لكن كل هذه الأضواء الباهرة التى قامت بها التحقيقات فى رؤى المحتضرين تتضاءل فى قيمتها العملية إزاء أخطر حقيقة تكشفت عنها : وهى أن العديدين من المحتضرين يدفنون أحياء بسبب التسرع فى تشخيص الموت .

وأيضاً بسبب الاعتقاد الجازم بأن « إكرام الميت دفنه » كما تعودنا أن نقول ، ولكن المشكلة أولاً هى فى الجزم بالموت . بمعنى أن الإكرام الحقيقى هو فى دفن الموتى لا فى دفن الأحياء قبل التحقق من موتهم ! !

ومقتضى التسرع فى دفن الموتى قبل القطع الجازم بموتهم هو أنهم قد يستردون وعيهم فى قبورهم فيعانون أهوالاً تجل عن الوصف ، حتى يموتوا فعلا من عذاب هذه الأهوال التى قد يتحمل مسئوليتها أعز الناس إليهم وأكثرهم حباً لهم .

لذا ينبغى التزام الحذر الشديد عند تشخيص الموت ولو بمعرفة أمهر الأطباء وأوفرهم خبرة ويقظة ، لأن التحقيقات العلمية أثبتت أن الوفاة لا تثبت أبداً بمجرد توقيع كشف ظاهرى على الميت ، حتى لو جرى هذا الكشف فعلا ، وهو قلما يجرى فى بلادنا . وقد أثارت هذه الحقيقة الرهيبة ثورة عارمة فى الدوائر العليمة التى يعنيها درء هذا الهول الأكبر بكل السبل ، بينما لم يتصد أى إنسان فى بلادنا لمحاولة درئه وتنبيه الأذهان إلى مدى احتماله وخطورته .

ماذا عن تشخيص الموت ؟

ولا ريب أن تشخيص الموت من أصعب الأمور حتى وإن كان الاعتقاد السائد أنه من أيسرها، إذ تبين — بشكل قاطع — أن مجرد توقف المظاهر العادية للحياة لا يكفى للجزم بالموت ، و بالتالى لاتخاذ مراسم الدفن .

و بلغ من دقة هذا التشخيص و صعوبته أن أحد الأثرياء الفرنسيين و هو المركيز دورشيس قدم جائزة مالية ضخمة لمن يصل إلى استنتاج علامة بسيطة و أكيدة على الموت .

فاقترح بعضهم الاستعانة بتأثير لهب الشمعة على إنملة الإصبع . كما اقترح بعضهم إجراء ملاحظة دقيقة على العين بعد تشخيص الموت ، لأنه وجدت من دراسة ٩٠٠ حالة وجود نقطة شهباء أو مظللة تظهر حتماً على الجدار الخارجى للغشاء الصلب ، ثم تمتد تدريجياً إلى باقى الجدار بعد الموت الحقيقى مباشرة .

و اقترح ثالث فحص لون باطن العين ، ورابع اقترح البحث فى مدى ازرقاق الجثة ، و فى قياس درجة حرارة الجسم . . . وهكذا تكاثرت الاقتراحات ، لكن لم يعتبر أى اقتراح منها حاسماً فى هذا الشأن حتى الآن .

وأجرى بعض الباحثين منذ سنة ١٩٠٦ أبحاثاً على تأثير بعض الموجات الكهربائية بأطوال معينة في الجسد الميت ، و اكتشف أنها تمر بسهولة فى الجسد الميت أكثر منها فى حالة الجسد الحى .

و بحث آخر ظهر منذ سنة ١٩١١ فى علاقة الهالة الإنسانية بالموت ، على أساس أن الهالة الحرارية تتوقف تدريجياً مع اختفاء الحرارة الحيوانية، وأما الهالة الحيوية التى تبدأ فى الاختفاء قبل توقف العقل فتتحول إلى ضوء رمادى أسمر .

وذهب فريدلاند **Fredlend** فى كتاب عنوانه « الموت » إلى أن الشخص لا ينبغى أن يعتبر ميتاً فى الحقيقة إلى أن تحدث بعض التفاعلات الضرورية فى الجسم، حتى مع توقف القلب و التنفس . وأن الموت الاكلينيكى له جميع مظاهر الموت من توقف العرق و القلب و النبض و حركة إنسان العين ، ولكن هذا لا يتساوى مع

الموت البيولوجى لأن الخلايا ما تزال تحتفظ بحيويتها ، فهو يمثل بداية الموت ، أو الموت فى أول مراحله ، أما الموت البيولوجى أى الموت الحقيقى فيجب أن يكون مصحوباً بتحلل الخلايا . وأول ما يتهدم منها أثمنها وألزمها للحياة مثل خلايا الجهاز العصبى المركزى .

وأستعان أطباء بجامعة هارفارد Harvard برسام المخ الكهربائى R.M.C. منذ سنة ١٩٦٨ لتشخيص الموت بصفة حاسمة على أساس أن المخ الميت يعطى موجة مستقيمة أى لا ارتفاع لها لمدة ٢٤ ساعة . ثم يعاد فحصه بعد فترة أخرى ، فلو حدث نفس الشىء اعتبر الشخص ميتاً بطريقة يقينية .

ولكن اعترض بعض الأطباء على هذا الجهاز لأن عدم ظهور أمواج مخية فيه لا يثبت انعدام الحياة . وفعلا ثبت فشل هذا الجهاز فى حالات عديدة ، فاخترع طبيب يدعى أرنولد ستار Arnoldstar من جامعة كاليفورنيا California جهازاً أدق منه بكثير من شأنه أن يقيس أى نشاط كهربى يجرى فى عمق بداخل المخ .

ومازالوا فى فرنسا يستعينون برسام المخ الكهربائى بشرط ألا يعطى أى نشاط لمدة ٤٨ ساعة ، أما فى روسيا فلا يتطلبون فى الفحص أكثر من مضى ٥ دقائق من الاستعانة بهذا الرسام .

وما يزال باب النقاش مفتوحاً إلى يومنا هذا للوصول إلى أيسر السبل المضمونة لتشخيص الموت « لأن لحظة الموت لا وجود دقيق لها » . ولأنه « لا توجد لحظة سحرية تختفى عندها الحياة » حسبما عبّر بعض المختصين[1] . وقد ازدادت أهمية الموضوع خصوصاً بعد اتساع نطاق جراحات زرع أعضاء الموتى فى جسوم الأحياء . فالكل يجزم الآن بضرورة التحفظ الشديد عند الجزم بالوفاة لأن كثيراً من الموتى يدفنون أحياء بسبب التسرع فى هذا الجزم على غير أساس علمى ، وبناء على مجرد توقف الأعراض الظاهرية للحياة .

---

(١) للمزيد فى هذا الشأن راجع على عبد الجليل راضى . المرجع السابق ص ٩٠ — ١٠٦ .

تحقيقات حاسمة متنوعة

وفى هذا الشأن يقرر كارنجتون[١] وميدر Carington & Meader فى مؤلف لهما عنوانه « الموت — أسبابه وظواهره »[٢] أنه فى كل أربع وعشرين ساعة فقط يدفن خطأ شخص واحد حى فى الولايات المتحدة على أقل تقدير . وأن « جمعية لندن الإنسانية » London Human Society بينت أنها قد أعادت إلى الحياة خلال اثنتين وعشرين سنة ٢١٧٥ شخصاً دفنوا أحياء ، أى أن موتهم كان ظاهرياً ، وأن جمعية مماثلة فى أمستردام أنقذت ٩٩٠ شخصاً فى خمس وعشرين سنة ، وأن جمعية مماثلة فى همبورج أنقذت ١٠٧ شخصاً فى أقل من خمس سنوات .

ويصرح المؤلفان بأنهما شخصياً يعرفان عدة حالات من هذا القبيل . والأرقام التى يوردانها رغم فداحتها لا تمثل بطبيعة الحال جميع الحالات ، بل تمثل فحسب تلك التى أمكن اكتشافها قبل فوات الأوان ، أما تلك التى لم تكتشف فلا يعلمها إلا علام الغيوب .

ثم ينبغى أن يراعى أن هذه هى الأرقام التى سجلتها فى كل مدينة منها جمعية واحدة فحسب من الجمعيات الكثيرة القائمة على دفن الموتى ، دون باقى الجمعيات الأخرى . فما أخطر الأرقام التى تذاع فى كل مكان ، وما أخطر ما تثيره من مشاعر الهول والفزع ، وما تستلزمه من احتياطات ! ! ...

وإذا كان هذا هو مايجرى فى بعض البلاد ، فما بالك بما يجرى فى بلاد أخرى حيث يزداد التسرع فى الدفن وتقل العناية بإجراء أى كشف طبى جاد أو غير جاد . . . فما أيسر الحصول فى بلادنا على شهادات الوفاة بدون إجراء أى كشف ، حتى ولو كان الموت ظاهرياً .

وقد تحدى أحد الأشخاص يوماً وكيل نيابة شبرا ، فأحضر له شهادة بوفاته هو —

---

(١) هيرورارد كارنجتون معدود من أبرز رواد البحث الروحى فى أمريكا وهو مؤسس « المعهد الروحى الأمريكى ومعمله » منذ سنة ١٩٢٠ . وهو صاحب إنتاج علمى غزير فى هذا الميدان .

(٢) Death : Its Causes & Phenomena.

أى بوفاة وكيل النيابة — مستكملة البيانات والتوقيعات والأختام ، وهو جالس على مكتبه ، لكى يبين له إلى أى مدى بلغ الاستهتار الفادح فى إعطاء هذه الشهادات . . . على ما نشرته الصحف السيارة فى حينه .

* * *

وقد كتب الدكتور إدوارد فولوم E. P. Vollum فى موضوع الدفن المعجل وأخطاره مبيناً فيه مجموعة من الحوادث ، ومستشهداً بما جاء فى قاموس كوين الطبى من أن مدة الغيبوبة قد تمتد من بضع ساعات أو أيام إلى عدة أسابيع أو شهور . ثم قال : « لقد نشرت المجلات الطبية البريطانية الصادرة فى الخمسين السنة الأخيرة (لغاية ١٩١٠) حالات عدة استرد فيها الموتى ظاهرياً حياتهم من مجرد إدراكهم لما يجرى حولهم من الاستعدادات لإغلاق التوابيت عليهم .

وقد تعرض لمثل هذا الخطر كثيرون من مشاهير الرجال ، منهم الدكتور ونسلو Winslow أستاذ التشريح ، والكردينال الفرنسى دونيه ، ودزرائيلى رئيس الوزراء البريطانى ، وقد ظل الأخير فى هذه الحالة أسبوعاً كاملا . وختم فولوم تقريره بالإحصاء الآتى :

إن ما عرف من هذه الحالات لا بد أن يكون قليلا جداً إذا هو قيس بما لم يعرف منها . ويقول الدكتور ليونس لنرموند Lionce Lenormond إن من يدفنون أحياء فى كل عام يبلغون واحداً فى كل ألف منهم . ويقدر الدكتور جوين Guen حالات الدفن المعجل باثنين فى الألف ، جامعاً ٢٣١٣ حالة من مصادر موثوق بها.

وذكر الدكتور مور راسل فلتشر Moore Russel Fletcher فى كتاب له عنوانه « ألف شخص يدفنهم أصدقاؤهم أحياء » (١٨٩٠) فواجع كثيرة من هذا الطراز . وجمع كارل سكستاس Carl Sextus ١٥٠٠ حالة للموت الظاهرى وقعت خلال خمس عشرة سنة ، وهو يقدر المدفونين أحياء باثنين فى المائة !! .

وذكر بروهيه Bruhier فى كتاب له عنوانه « بحوث فى التباس حالات الموت » ١٨١ حالة — منها اثنتان وخمسون لأشخاص دفنوا أحياء ، وأربع لأشخاص

شرّحوا أحياء ، وثلاث وخمسون أفاقوا وهم مدرجون فى أكفانهم قبل الدفن ، واثنتان وسبعون حالة أخرى من حالات الموت الظاهرى .

وفى أول مارس سنة ١٩٠٩ قرر مجلس العموم البريطانى طبع وثيقة « لإصلاح القانون الخاص بدفن الموتى » وتوزيعها . وقد أقر أعضاء اللجنة التى عهد إليها بأمر هذا الإصلاح بأنه كان للأدلة التى قدمت إليهم عند مناقشة هذا الموضوع وقع شديد فى نفوسهم ، لأنها أثبتت بشكل حاسم أن الوسائل الطبية المألوفة فى تشخيص الوفاة لا تكفى بالمرة ، ولذا أشاروا بوجوب زيادة التدقيق فى وسائل الفحص والاختبار .

* * *

ويقول الدكتور شبلى شميل فى مقال له عن هذا الموضوع : « ولا أذكر أنى جزعت فى كل أطوار حياتى من كل أنواع الموت مثل جزعى عند تصور هذا الدفن ، وما ذلك منى من تلك الغفوة التى لا تحب ، بل من تلك اليقظة التى ترهب .

والحق يقال إن الطب مهما دقق فى التحرى للتأكد من الموت الحقيقى فلا يسعه إلا الاعتراف بأن كل العلامات المعوّل عليها قد تخطىء ما عدا علامة واحدة هى التعفن (أو بالأدق ظهور البقع الزرقاء على الجثة) ، فيجدر بالناس والحكومات والحالة هذه ألا يعولوا فى إجازة الدفن على علامة أخرى . ولأجل ذلك يجب أن يكون فى كل مدفن محل معد لهذا الغرض تنقل الجثث إليه ، وتحفظ فيه الوقت الكافى حتى تظهر فيها العلامة الصادقة ثم تدفن .

والغريب أن الناس مع علمهم بذلك وشدة حرصهم على حياتهم وراحتهم مقصرون فى هذا الأمر ، مع أنه أهم وألزم وأوجب وأرحم من بناء القبور الفخمة ، وإقامة المآتم العظيمة التى يتباهى بها الأحياء على حساب الموتى . . . وإذا جاز لى أن أطلب شيئاً ممن بيدهم حينئذ أمرى فلا أطلب منهم سوى شىء واحد معقول استعطفهم فيه شفقة علىّ ، وألتمسه منهم رحمة بى . فأنا لا أخاف الموت ، ولا أخاف ما بعد الموت . . . ولا أخاف إلا يقظة القبر . فأنا لا أطلب إلا أن أدفن ميتاً حقيقياً لا يجوز أن ترد إلى الحياة ولو فى أقل الاحتمالات ... » .

واقعة لها دلالتها

وفيما يلى نسرد تلخيص واقعة هامة تأيدت إلى أدق تفصيلاتها بأساليب التحقيق المادى المألوفة. وهى مفرطة فى دلالتها على العناية التى ينبغى أن يحظى بها هذا الموضوع الذى قد يبدو غريباً على بعض الأذهان.

وهذه الواقعة تتلخص فى أن جلسة روحية عقدت داخل جامعة كامرينو Camerino بإيطاليا بناء على طلب السنيور جوزيبى ستوبولونى Giuseppe Stoppoloni أستاذ التشريح بالجامعة الذى كان معنياً فى نفس الوقت بالبحوث الروحية . وكان الوسيط يدعى راؤول بوتشى Raoul Bocci . ولما راح فى غيبوبته هيمنت عليه سيدة قالت إنها تدعى روزا منيتشلى Rosa Menicheli وإنها كانت على الأرض قرينة السيد جيوفانى سبادونى Giovanni Spadoni وإنها دفنت حية بسبب التسرع فى تشخيص الوفاة . وكانت عندئذ فى الثامنة والثلاثين من عمرها ، وإن جثمانها موجود فى المقبرة المحلية .

وبعدئذ توجه الدكتور ستوبولونى بتاريخ ١٣سبتمبر سنة ١٩٥٠ ومعه اثنان من زملائه الأطباء إلى المقبرة المشار إليها ، وبعد بحث مثابر أمكنهم التوصل إلى المدفن الخاص بهذه السيدة التى قيل إنها « توفيت » بتاريخ ٤ سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، وورد فى شهادة وفاتها إنها بسبب « حمى نفاسية وهبوط فى القلب » .

وفتح القبر فى حضور الأطباء الثلاثة وعدد من الرسميين فى الناحية . وتبين أن الهيكل العظمى كان راقداً على ظهره ، لكن الجمجمة كانت تنظر ناحية اليسار . وكان الذراع الأيسر منحنياً والأصابع واليد فى داخل الفم وتجويف الحنجرة ، وقد عضت الأصابع من هول الفزع والألم حتى وصل العض إلى جرح العظام ! !

وقد أكد الأطباء الثلاثة صحة هذه الوقائع التى أيدت المعلومات الوساطية إلى أدق تفصيلاتها . وبعدها أعلن البروفسور ستوبولونى حملة ضخمة لتفادى التسرع فى دفن « الموتى » . وقد توفى هذا الطبيب فى سنة ١٩٦٥ ، فحذار ثم حذار أيها الأهل والأقرباء من التسرع فى الجزم بالوفاة، مهما قيل لكم إن الأعراض حاسمة وقاطعة .

يا قوم : لا تكونوا مع أعزائكم أقسى من الوحوش ! !

ولدرء هذا الخطر الفادح — خطر دفن أحد الأعزاء حياً — تشير الوسيطة جلاديس أوسبورن ليونارد G. Osborne Leonard بضرورة قطع شريان أو وريد فى جسم الميت قبل الدفن بيوم ، أو بفترة كافية للاحتياط ضد هذا الخطر الداهم على أية حال مهما كان احتماله ضئيلا . وهى تشير بضرورة ذلك بعد اختبار حالات متعددة شاهدت فيها بنفسها أن الحبل الأثيرى لم ينقطع بالوفاة ، وأن الجسد الأثيرى كان بالتالى لا يزال ملازماً للجثمان ..

كما يقترح بعض الأطباء أن يحقن الميت بكمية كافية من مادة مثل محلول الفورماليل ، لأن من شأنه أن يجعل عودة الحياة إلى الجثة أمراً محالا عند افتراض الخطأ فى تشخيص الوفاة ، مهما كان احتمال هذا الافتراض ضئيلا ، أو مهما ظهر ضئيلا ، بل معدوماً ، فى نظر أساليب الطب التقليدى ، كما يطبقها بعض المتسرعين الواثقين من أنفسهم على غير أساس من الواقع .

ولا ريب أنه لدرء هذا الاحتمال من أساسه شاعت طريقة حرق الجثث ، التى لها بالإضافة إلى ذلك مزية أخرى . وهى تجنيب الميت أن يرى جثمانه فى مرحلة التحلل ، أو أن يحاول هذه الرؤية بدافع من حنين طبيعى . وقد أكدت ذلك أرواح كثيرة ، ودافعت عنه خصوصاً بالنسبة لمن يموت منتحراً ، حيث قد يضطر الميت إلى ملازمة جثمانه ، بحكم ناموس طبيعى ، وهو ما يمكن إنقاذه منه بحرق الجثة ، وتحريره من إسارها نهائياً . وقد اتبع ذلك الأسقف الأمريكى جيمس بايك James Pike عندما مات ابنه جيم Jim منتحراً .

ولكن يراعى أنه حتى عند رغبة حرق الجثة أو تحنيطها بسبب النقل أو لغيره ينبغى ألا يحدث ذلك قبل التأكد تماماً من حدوث الوفاة ، هذا التأكد الذى لا يكون بالكشف السطحى المألوف على النبض والتنفس والوعى ، بل بانتظار ظهور البقع الزرقاء ، وهو لا يمكن أن يتأخر عن ٢٤ ساعة إلا فى القليل النادر ، وإلا باتخاذ احتياطات ضرورية قلما يتخذها الأطباء رغم لزومها ، ورغم أنها تدرأ خطراً رهيباً لا يوجد أى خطر يدانيه فى جميع الاحتمالات الأليمة التى يمكن للإنسان — فى كل تعاسته وبؤسه — أن يتخيلها ...